ثقافات الشعوب

@ketab_n
30.9.2014

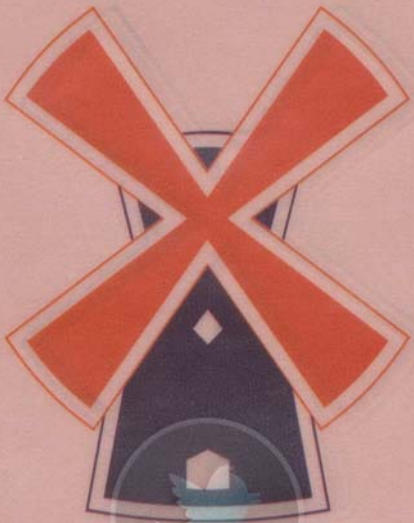

@ketab_n

برابو والعملاق
حكايات شعبية من هولندا

جمع: وليام إليوت جريفيس
ترجمة: يوسف رخا

برابو والعملاق

حكايات شعبية من هولندا

جمع:
وليام إليوت جريفيس

ترجمة:
يوسف رخا

كلمة
KALIMA

أبوظبي للثقافة والتراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE

Twitter: @ketab_n

برابو والعملاق

حكايات شعبية من هولندا

Twitter: @ketab_n

© هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، المجمع الثقافي
فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر

برابو والعملاق: حكايات شعبية من هولندا

© حقوق الطبع محفوظة
هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (كلمة)
الطبعة الأولى 1431 هـ 2010 م

PZ8. G875. Du12 2009
Griffis, William Elliot, 1843 - 1928.
[Dutch Fairy Tales]
برابو والعملاق: حكايات شعبية من هولندا/ جمع وليام إليوت جريفيس؛ ترجمة يوسف رخا
- ط.1.- أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2009.
260ص؛ 19x12.5 سم. (سلسلة ثقافات الشعوب).
تدمك: 9- 338-01-9948-978
ترجمة كتاب: Dutch Fairy Tales
1 - الحكايات الهولندية. 2 - االقصص الشعبية الهولندية. أ- رخا، يوسف، 1976.
ب- العنوان.

مراجعة وتحرير: سامر أبوهواش
إخراج وتصميم: أحمد عبد الله النتان

كلمة KALIMA
info@kalima.ae
www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 468 6314 2 971+ ،
فاكس: 462 6314 2 971+

www.adach.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ ،
فاكس: 059 6336 2 971+

إن هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (كلمة) غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره وإنما تعبّر آراء الكتاب عن مؤلفها.

حقوق الترجمة العربية محفوظة لكلمة
يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

Twitter: @ketab_n

المحتويات

الموضوع	رقم الصفحة
تقديم	9
حين علقت حورية البحر	11
الولد الذي أراد المزيد من الجبن	22
الأميرة ذات العشرين تنورة	32
الأقطة والمهد	42
الأمير نول والآنسة بياض الثلج	54
الخنزير البري ذو الشوارب الذهبية	65
ملك الثلج وحفيدته الفاتنة	75
عجائب العفاريت	84
العفاريت والأجراس	99
المرأة التي أنجبت ثلاثمئة وستة وستين ولداً	115
أسفار أوني	129
أسطورة الحذاء الخشبي	143
أسد في ذيله مروحة	156
برابو والعملاق	169
المزرعة التي هربت ثم عادت	178
سانتا كلاس و«بيت» الأسود	190
ماذا كان يرتدي سانتا كلاس؟	194
الغيلان الذين تحولوا إلى حجارة	201
القرش العفن	211

Twitter: @ketab_n

الخوذة الذهبية 226
حين غضب القمح 237
لماذا تحب اللقالق هولندا؟ 248

Twitter: @ketab_n

هذه السلسلة

تأتي هذه السلسلة التي تجمع تراث الشعوب من الحكايات والأساطير والخرافات الشعبية، منسجمة مع الأهداف والقيم التي اختطتها لنفسها مبادرة «كلمة» منذ البداية، كمشروع رائد للترجمة في العالم العربي. تلك القيم والأهداف التي تسعى أبوظبي إلى تجسيدها، لتشيع ثقافة التسامح والحوار، وبناء جسور التواصل بين شعوب الأرض وحضاراتها ، وتعزيز العمق الثقافي الجامع بين مختلف الأعراق والجنسيات والثقافات، وجمعها تحت سقف واحد، هو سقف الثقافة والمعرفة والكلمة التي تجمع ولا تفرّق.

وليست حكايات الشعوب هذه، التي تقدّم للمرة الأولى لقرّاء العربية بمثل هذه الشمولية والكثافة والاتساع، إلا ترسيخاً لهذا المشترك الإنساني الجامع. وكأن ما اصطلحت البشرية على تسميته «عولمة» منذ عقدين من الزمان أو نيّف، كان متحقّقاً بالفعل منذ مئات بل آلاف السنين، عبر حكايات نجدها تتنقّل بحرية من أرض إلى أرض، ومن لسان إلى آخر، إذ تطرأ عليها تعديلات هنا أو هناك، لتناسب ثقافة هذا الشعب أو ذائقة تلك الأمة، أو ظروف تلك الجماعة. وفي بعض الأحيان نجد الحكاية نفسها - مع تغيير في أسماء الناس والأمكنة - تروى في أقاصي الشرق، على نحو ما تروى في أقاصي الغرب، أو

Twitter: @ketab_n

شمال الأرض أو جنوبها. فإذا كانت الحكايات تتمتع بميزة أساسية فهي قدرتها على اختراق الحدود الجغرافية والعرقية والنفسية والسياسية والدينية واللغوية، لتولد في كل مرة، وعند كل قوم من الأقوام، بصورة خاصة وفريدة، تشير إلى خصوصية الذات.

وهكذا، تبقى الحكايات سرّ هذه الأرض الواحدة، نبتتها أو لنقل زهرتها الفريدة، التي نبتت من تربتها الخصبة الواحدة، ونمت تحت سمائها الشاسعة الواحدة، لتجوب آفاق الدنيا، مبدّلة ربما أثوابها وألوانها، ولكن محتفظة دوماً بجوهرها الإنساني الفسيح والعميق.

وإننا إذ نقدّم هذه الحكايات، زهرات الأرض الفريدة هذه، في باقة واحدة ثرية الأجناس والألوان، فإيماناً منا بأننا على اختلاف ثقافاتنا وحضاراتنا، أبناء هذه الأرض الواحدة، وبأن ما ترويه جدّة ما لأحفادها في أصقاع القطب الجنوبي، من حكايات تؤكد قيم الخير والحب والعدالة والسلام، ترويه – وإن بلغة أخرى – جدة أخرى في أصقاع أخرى من الأرض، وهذا ما يجعل الحكايات الشعبية ميراثاً أصلياً للبشرية جمعاء، بقدر ما هي ملك أصلي لكلّ شعب من الشعوب وثقافة من الثقافات.

د. علي بن تميم

مدير مشروع «كلمة» للترجمة

Twitter: @ketab_n

تقديم

على الرغم من الطابع الوعظي أحياناً، والتعليمي في أحيان أخرى، فقد حرص جامع هذه الحكايات على أن تحتفظ أغلب الأحيان بقيمتها الحكائية، معتمداً البساطة الشديدة في أسلوب سرده، والتشويق الذي يناسب مخاطبة عمر معين (فالعنوان الأصلي الكامل للكتاب هو «حكايات شعبية من هولندا للقراء الفتيان»). وهكذا استقر خياره على نمط من الحكايات التي توازن بين العناصر المدهشة والسحرية والجانب التربوي التعليمي، مثل الحرص المستمر على شرح جوانب معينة في التاريخ والتراث الهولنديين أو المناطق المحيطة.

كما في معظم حكايات الشعوب فإن الصبغة المحلية تبقى الأكثر هيمنة، وهذا نجده بارزاً هنا في أسماء الأشخاص والأمكنة والنباتات والحيوانات والأنهار وحتى الملوك والملكات، كما يلاحظ حرص المؤلف الديني على «تعليم» المستمعين أو القراء لحكاياته على الديانة المسيحية، وربط

Twitter: @ketab_n

الكثير من القيم التي تدور حولها الحكايات، بقيم هذا الدين ومثله، وهي على أيّ حال قيم تحضّ على الخير والحب والكرم والشهامة. ولعل الحرص على الجانب التربوي، جعل جامع الحكايات يحصر لغته وحكاياته بالجانب المسالم الهادئ، وإن لم تكن جميع حكاياته تنتهي نهاية سعيدة بالضرورة، لكننا لن نجد فيها أثراً للأحداث أو المصائر المفجعة أو الأوصاف العنيفة التي قد نجدها في حكايات أخرى.

ولعل أهم ما في الحكايات، بالنسبة إلى القارئ الذي لا يعرف هولندا بالضرورة، هو أنها تعرّفه على روح هذا البلد، وتقوده في رحلة متشعبة، حتى على الصعيد الجغرافي والتاريخي، تجعله يشعر أنه يألف هذا البلد وأهله، إذ ترسم له، رغم الكثير من الخيال فيها، صورة صادقة وشديدة التنوع عن عادات هولندا وتقاليدها، وهي وإن اختلفت في كثير من الجوانب عن العادات والتقاليد العربية، فإنها تحتفظ في جوهرها بالكثير من العناصر التي يجد القارئ العربي الكثير من العوامل المشتركة معها، سواء فيما يخص بعض الخرافات أو بعض القيم الإنسانية الجامعة.

يوسف رخا

Twitter: @ketab_n

حين علقت حورية البحر

في قديم الزمان، في أرض الحكايات الهولندية، عاشت حورية بحر شابة شديدة الخيلاء بحسنها. كانت عائلتها من أهل البحيرة القريبة من البحر، ودارهم غدير واسع نصف مائه مالح ونصفه حلو، لأنه يحيط بجزيرة بالقرب من مصب أحد الأنهار. كانت الصبية، في أثناء الجَزْر، تلهو بماء البحر وتسبح فيه. وحين يتنهد المحيط فيدفع المدّ الماء المالح إلى اليابسة، تطفو وتمرح وتسبح على سجيتها. كان أبوها حوريّ بحر رماديّ اللحية، وكان فخوراً بابنته الحسناء، وقد امتلك الجزيرة الواقعة عند مصب النهر والتي اعتادت أن تقصدها الحوريات للنزهة وتناول الطعام في الهواء الطلق واستقبال زوارهن من حوريي[1] البحر.

وكانوا هؤلاء جميعاً يعيشون برصانة ورزانة، وجلّ همهم الاعتناء بنظافة بحيرتهم وترتيبها. فلم يكن يُسمح للضفادع أو

(1) مذكر حورية البحر (م).

Twitter: @ketab_n

العلاجيم ولا سمك الإنقليس بالاقتراب من البحيرة، لكن في أعمال التنظيف المنزلي اليومية، كانت اللقالق وحوريات البحر من أحسن الأصحاب.

وقد منع كل من هو غير مؤدب ولا يحسن التصرف من مخلوقات الماء من المجيء إلى البحيرة، وحتى الطيور البلهاء من الغواص والزقزاق وكل من صرخ أو تقاتل من ذوي الأجنحة، أُنذروا جميعاً بالابتعاد عن الدار. فقد كان حوريو البحر يفضلون قضاء وقت هادئ لطيف وحدهم، من دون أن يزعجهم المتطفلون سواء أكانوا من ذوي القوائم أو الأجنحة أو الزعانف. وقد أرادوا أن يجعلوا من دارهم داراً نموذجية لكل أبناء جنسهم في دائرة قطرها عشرة فراسخ[1]. وكم كان مضحكاً رؤية الحوري الشيخ وهو يحمل قضيبه الخيزران ويهش به الطيور الوقحة كزمار الرمل والنورس الزاعق. أما الضفادع الضخمة التي يعسر على اللقلق ابتلاعها كما الأسماك الصفيقة، فكان يطردها بكرباج مصنوع من أعشاب البحر.

بالطبع كانت زيارات حوريات البحر موضع ترحيب دائم، أما حوريو البحر فلا يسمح لهم إلا بزيارة واحدة شهرياً

(1) يساوي الفرسخ زهاء ثلاثة أميال (م).

Twitter: @ketab_n

خلال الأسبوع الذي يكتمل فيه القمر. حينئذ تكون السماء صافية، فيمكن لهؤلاء الشبان بعد انتهاء الحفل أن يتبينوا طريق عودتهم إلى ديارهم مع نسائهم على ضوء القمر. ذلك أن هناك وحوش بحر مولعة بالإغارة على قوم حوريي البحر وتهدد بافتراسهم. فكان على الرجال أن يصطحبوا عرائس البحر الرقيقات لحمايتهن من أيّ اعتداء، وهن بدورهن كن يشعرن بالأمان، فإخوتهن وآباؤهن من الضراوة إلى درجة أن تهاب الأسماك الكبيرة – ما عدا أسماك القرش – مثل خنازير البحر والدلافين، الاقتراب منهم.

ذات يوم ذهب والدا الحورية الحسناء بضعة أيام لزيارة بعض الأقارب قرب جزيرة أورك[1]، فأقامت الفتاة حفلاً في غيابهما وتولّت خالتاها مرافقتها إلى ذلك الحفل.

وقد اعتادت عرائس البحر أن يقمن حفلاتهن على الجزيرة وسط البحيرة، حيث يتشمسن ويتحدثن عن الأزياء وأجمل تسريحات الشعر. وكانت كل واحدة منهن تحمل مرآة جيب (إلى اليوم لم يكتشف أحد من البشر الفانين أين تحتفظ عرائس البحر بتلك المرايا في أثناء السباحة). وكن يصنعن أكاليل

(1) شبه جزيرة أورك اليوم مقاطعة وبلدة في منطقة فليفولاند بهولندا، وكانت فيما مضى جزيرة في بحيرة آلمير (م).

Twitter: @ketab_n

من أعشاب البحر ذات الألوان الزاهية – البرتقالي والأحمر والأسود والرمادي والأزرق – ويضعنها على جبينهن كالتيجان أو يضفرنها في شعورهن مع ثمار البحر وأزهار الماء. وأحياناً كن يصنعن من أشد الأعشاب أحزمة يعقدنها حول خصورهن.

وكن كل فترة ينتخبن من بينهن ملكة جمال ينصبنها حاكمة عليهن وتعاملها الأخريات كالملكة. وكانت ألعابهن هذه تدوم على هذا النحو طوال النهار، وهن في سعادة متناهية يذهبن بحثاً عن اللؤلؤ والعنبر والمرجان وأشياء أخرى جميلة يحضرنها إلى ملكتهن أو يتخذنها زينة لهن. وهكذا اصطنعت ملكة عرائس البحر ووصيفاتها الجميلات بلاطاً للجمال ذاع صيته كل مكان. وكن كثيراً ما يتحدثن عن حسناوات البشر من أمثالهن.

قالت واحدة: «كم هو مضحك ارتداء الملابس».

«هل يعانين من البرد حتى يطلبن الدفء؟» هذا السؤال، سألته عروس بحر بالكاد نمت زعنفتاها وتحولتا يدين كما عند من يكبرنها سناً.

وسألت أخرى: «كيف يتمكنّ من السباحة هكذا؟».

Twitter: @ketab_n

وقالت ثالثة تدعى ذات الحراشف الفضية: «سمع أخي أن رجال البشر ينتعلون أحذية خشبية! لابد من أنه يزعجهم، وهم في الماء، أن تطفو أقدامهم بفعل ما فيها من خشب، ما أشقاهم لأن ليس لهم ذيول كالتي لنا» ونظرت بإعجاب إلى الغطاء المحرفش للنصف الأسفل من جسدها فرأته يترقرق براقاً.

وقالت عروس بحر مختالة بعودها الرائع وخصرها الرشيق: «لا يمكن أن تكون بنات البشر حتى في نصف جمالنا».

«كنت لأحب أن أكون إنسانة بعض الوقت، فقط لأجرب وأعرف كيف يكون إحساسي وأنا أمشي على ساقين» هكذا قالت أخرى بشيء من التردد، وكأنها تخاف ألا يعجب كلامها صديقاتها.

وكان خوفها في محله، فقد انطلقت جوقة التأنيب: «لا، لا! يا للفظاعة! ما أبشعها من فكرة! من لا تحب أن تكون عروس بحر؟».

وصاحت إحداهن: «وعلام كل هذا، فأنا سمعت أن نساء البشر عليهن أن يعملن، ويغسلن ملابس أزواجهن ويحلبن الأبقار، ويحرثن التربة لزرع البطاطا ويمسحن الأرض ويعتنين بالعجول. من يحب أن يكون أنثى بشرية؟ لست أنا بالتأكيد»، وبما أن أنفها

Twitter: @ketab_n

الأفطس ما كان ليشمخ أكثر مما هو شامخ بطبيعته، فقد اتسعت فتحتاه تعبيراً عن احتقارها للفكرة، فمن المستحيل أن تبدو مخلوقة في تنورة أجمل من عروس بحر في غطاء من الحراشف البراقة.

وأردفت: «وماذا عن أنوفهن الكبيرة! كما قيل لي إن بنات البشر عليهن حتى أن يرتدين مشابك شعر».

وبإزاء على هذه الفكرة – أن تضطر فتاة إلى ربط خصلات شعره – صُدم بعضهن واشمأزت نفسه، بينما صفق بعضهن الآخر بمزيج من الحسد والشماتة.

لكن أكثر ما يضحك عرائس البحر هي القفازات التي يرتديها البشر، وقد قهقهن جميعاً من فكرة وجود أشياء تغطي الأصابع. وعلى سبيل العبث لا أكثر، راحت إحدى صغار العرائس تكسو يديها ببعض أعشاب البحر، لترى كيف تبدو هذه الأشياء.

ذات يوم، وهن يتشمسن على الجزيرة، وجدت إحداهن دغلة ينبت فيها كف الثعلب[1]. فقطفت منها وغطت كل إصبع من أصابعها بزهرة حمراء. ثم عادت إلى الأخريات تتقافز رافعة كفيها أمامها. وبمزيج من الفزع والحسد، سمعن قصتها.

(1) نبات له زهرة حمراء مخروطية أشبه بوعاء مستطيل (م).

Twitter: @ketab_n

كان الجمع على وشك أن ينفض حين لاح من الماء فجأة حوريّ شاب. كان التيار في الجزر ومنسوب النهر منخفضاً فاجتهد الشاب حتى يقطع مياه النهر الحلوة إلى الجزيرة. وكان الماء المالح يتساقط من عينيه كأنه يبكي. بدا مجهداً وهو يلهث بالكاد قادراً على التقاط أنفاسه. وبادرته ملكة العرائس بالسؤال عما يعنيه بالحضور وسط الصبايا في وقت كهذا وعلى الحال التي هو عليها.

فبدأ الشاب الخجول ينتحب. ووضع بعض الفتيات أيديهن على أفواههن ليكتمن ضحكاتهن وهن يتغامزن والمتعة بادية عليهن لوجود حوري في مثل هذه الوقت وفي وضح النهار، بل وأن يبكي كذلك؛ لم يكن المشهد يحتمل تحفظاً من قبلهن.

وظل الشاب يبكي ماءً مالحاً – «بوهووو، بوهووو» – ويحاول أن يلتقط أنفاسه. حتى تكلم كلاماً معقولاً، في النهاية، قائلاً إنه جاء ليحذر عرائس البحر من أن جماعة من رجال البشر البغيضين في طريقهم الآن إلى الجزيرة، منتعلين الأحذية الخشبية وحاملين الفؤوس والجواريف والمضخات، عازمين على تجفيف مياه البحيرة، وقال إنه سمعهم يخططون لتحويل النهر إلى قناة وبناء سد يحجز عنه المحيط.

Twitter: @ketab_n

صاحت إحدى العرائس متألمة: «يا للحسرة يا للحسرة! إلى أين نذهب بعدما تدمّر بحيرتنا؟»، ثم راحت تبكي بغزارة، والدموع المالحة تسقط من عينيها في قطرات كبيرة.

صاحت الملكة: «صه! أنا لا أصدق حكاية الحوريّ. إنه يرويها فقط ليخيفنا. فهذا طبعه».

وقد ارتابت الملكة في أن قصة الحوريّ ليست في الواقع سوى خدعة تمويهية هدفه من ورائها أن يختطف ذات الحراشف الفضية، فهي إحدى أجمل عرائس هذه الجماعة ولكن سنها صغير جداً وهي مغرورة تافهة. وليس سراً على أحد أمر غرامها مع هذا الحوريّ ورغبتهما في الزواج.

لذا صرفته من دون أن توجه له الملكة حتى كلمة شكر. وبعد العشاء عندما تفرق الحفل انتحت الملكة كهفها طلباً لقيلولة طويلة. كانت مجهدة بعد استضافة كل ذلك الجمع. ثم إن والديها غائبان وكانت ليلة مظلمة ولا قمر يلمع على سطح الماء، وبالتالي لن يأتي أحد زائراً فما حاجتها إلى الاستيقاظ باكراً؟

Twitter: @ketab_n

فكان أن نامت ملكة عرائس البحر أطول مما نامت في حياتها كلها، لدرجة أنها لم تستيقظ إلا عند غروب اليوم التالي. فأخذت مشطها ومرآتها، وبدأت تسبح وترشرش الماء في البحيرة، حتى تمسد خصلات شعرها استعداداً لعشاء خفيف.

لكن كم كان المشهد اليوم مختلفاً عن الأمس! ما الخطب؟ بدا كل شيء من حولها متغيراً. فقد قلّ منسوب المياه حتى كادت البحيرة تفرغ منه. وكان النهر، بدلاً من جريانه المعتاد، ساكناً كبركة راكدة. يا للهول! عندما سبحت إلى الأمام، لم تر إلا سداً وأسواراً! لقد جاء جيش من الرجال البغيضين، في أثناء نومها، وبنوا في النهر سداً وسياجاً حول البحيرة وبدأوا بالفعل في حفر قنوات لصرف المياه. وكان بعضهم منهمكاً في بناء مضخة مياه.

أول ما استشعرته كان اصطدام أنفها بالسد. وفكرت على الفور في تسلق السور إلى عمق البحر. وعندما حاولت ذلك، اشتبك شعرها بأعمدة السور حتى إنها اضطرت للتخلص من المشط والمرآة لكي تستطيع أن تخلص خصلاتها. وكلما حاولت أكثر، اشتبك شعرها أكثر. ولم يمض وقت حتى صار شعرها الطويل ملتفاً حول الأعمدة الخشب. عبثاً حاولت الفرار.

Twitter: @ketab_n

وأوشكت على الموت خوفاً حين رأت أربعة رجال بغيضين يهرعون للإمساك بها. حاولت أن تزحف بعيداً إلا أن شعرها الطويل المشتبك في الأعمدة منعها من الحراك. وكان فزعها من فضيحة أن يأسرها بشر من الشدة إلى درجة أنه أغمي عليها.

وحين أفاقت وجدت نفسها في حوض كبير مستطيل. كان حشد من الصبيان والبنات الصغار الفضوليين يحملقون بها، مستمتعين بثمن بما دفعوه ثمناً لذلك، فقد دفع كل منهم ستيفر[1] واحد كتذكرة لمشاهدة العرض. ومرة أخرى، أمام كل هذه العيون، جرحت في صميم كبريائها حتى إنها تأوهت مرة واحدة وماتت في الحوض.

ويا لفجيعة الأب والأم المسكينين في أورك حين عادا ووجدا دارهما القديمة قد اختفت. وحين أخفقا في الوصول إلى البحيرة، أطلقا العنان للسباحة في عرض البحر – من دون توقف – حتى وصلا إلى سبيتزبرجن[2].

ماذا حدث لجثمان ملكة عرائس البحر؟

---

(1) عملة كانت تستخدم في هولندا حتى أوائل القرن التاسع عشر، وهي تساوي زهاء دولارين (المؤلف).

(2) جزيرة في المياه النرويجية (م).

Twitter: @ketab_n

لقد جاء العلماء من ليدن لاختبار ما لم يعد سوى عينة بيولوجية لاستكشاف مما تتكون عرائس البحر. وفيما بعد، حشي جلدها ووضع في محجريها كرتين من البلور. بعد ذلك حنطوا جسدها وثبتوه على قضبان من حديد في صندوق زجاجي في المتحف. وجاء الفنانون إلى ليدن لكي يصوّروها، وما لا يقلّ عن تسعة نبلاء نسخوا شكلها الجميل على الرايات والأوسمة الخاصة بمقاطعاتهم. وبدلاً من بحيرة عرائس البحر، بات هناك اليوم مزرعة للجبن تحتوي على خمسين بقرة وبيت، وعائلة من الأطفال ذوي الخدود الزهرية والشعر الذهبي، يتمشون ويلعبون في أحذية خشبية.

بعد تحنيطها، ولأن شعرها علق بالسور، اكتسبت عروس البحر هذه شهرة فاقت شهرتها في حياتها، في حين غرق رفاقها الصغار وأقاربها الأكبر في غياهب النسيان.

Twitter: @ketab_n

الولد الذي أراد المزيد من الجبن

كان كلاس فان بومل ولداً هولندياً في الثانية عشرة من عمره يسكن في منطقة تتوافر فيها الأبقار. وقد فاق طوله الخمسة أقدام، وبلغ وزنه زهاء مئة رطل وتورّد خداه بالصحة والعافية. وكانت شهيته دائماً مفتوحة، مما دفع أمه إلى القول إن بطنه لا قعر لها. وكان لون شعره الكثيف كأعواد القصب في المستنقع حائراً بين لون الجزر ولون البطاطا الحلوة، وقد قصّ في خط مستوٍ من أسفل إحدى الأذنين إلى أسفل الأخرى.

كان كلاس ينتعل حذاء خشبياً يقعقع بصورة رهيبة كلما طارد أرنباً، أو مضى إلى المدرسة على طريق قريته المرصوفة بالطوب. وكان في الصيف يرتدي بلوزة زرقاء خشنة من الكتان، وفي الشتاء يرتدي سروالاً صوفياً قصيراً واسعاً كأكياس البن ولذلك سمي «السروال الجرس»، لأنه بدا أشبه بجرسين علقا بالمقلوب. وفوق هذه الملابس كان يرتدي سترة سميكة تمده بالدفء. وقد ظل كلاس حتى سن الخامسة،

Twitter: @ketab_n

يرتدي ثياب أخواته البنات، حتى حظي في عيد ميلاده بملابس الصبيان ذات الجيوب، وفرح بها أشدّ الفرح.

كان كلاس ابن مزرعة. وقد اعتاد أن يتناول خبز الجاودار[1] والحليب للفطور. أما على الغداء، إضافة إلى الخبز والجبن، فكان يتناول طبقاً مليئاً بالبطاطا المسلوقة، فينقض بشوكته على قطع البطاطا ثم يغمسها في إناء كبير من الزبدة السائلة. وسرعان ما تختفي الزبدة والبطاطا في «كهف» فمه. أما وقت العشاء فيأكل الخبز والحليب المقشود، بعدما تكشط القشدة عن وجهه لصنع الزبدة. وكان كغيره من الأطفال يهنأ مرتين أسبوعياً بسلطانية من اللبن أو الحليب المتخثر مع قليل من السكر الأسمر على سطحه. لكن في كل وجبة كان هناك جبن، على شكل شرائح غالباً ما كان الولد يظنها أرفع مما يجب.

حين يخلد كلاس إلى الفراش، كان أكثر الوقت يغطّ في النوم بمجرد أن يلامس شعره الأشقر المخدة. فينام في الصيف إلى أن تزقزق العصافير فجراً. وفي الشتاء، حين يكون الفراش دافئاً والصقيع في أوج نشاطه، عادة ما كان يمكث هكذا إلى أن

(1) نوع من الطحين معروف في العربية باسمه الفارسي يصنع منه خبز أسمر كثيف (م).

Twitter: @ketab_n

يسمع الأبقار تتحدث بطريقتها فيما بينها قبل أن يقفز ناهضاً عن فراشه القش. لم يكن آل فان بومل من الأغنياء، لكن كل شيء في بيتهم كان نظيفاً يلمع.

وكان دائماً عند آل فان بومل وفرة من الطعام: فيتكدس في قبوهم خبز الجاودار الذي يبلغ كل رغيف منه يارده كاملة، أطول من ذراع رجل. وكانت عملية الخبز تجري مرة كل أسبوع وتشكّل حدثاً جللاً في بيت آل فان بومل حيث لا يُسمح لرجال البيت بدخول المطبخ إلا إذا طلبت مساعدتهم في أمر ما. أما دلاء الحليب، ملآنة أم فارغة، مغسولة أم موضوعة في الشمس يومياً لتجف، والأجبان المكومة في خزانة الطعام، فإنها أحياناً ما تبدو كافية لتغذية جيش صغير.

غير أن كلاس دائماً ما يريد المزيد من الجبن. في نواحٍ أخرى، كان ولداً صالحاً، مطيعاً في البيت، على استعداد دائم للعمل في مزرعة الأبقار، مجتهداً في المدرسة. لكنه ما كان يعرف الاكتفاء على المائدة. أحياناً كان أبوه يضحك ويسأله إن كان تحت سترته بئر أو كهف.

كان لكلاس ثلاث أخوات صغيرات: ترنتي، وأنيكه، وسارتي. وكانت أمهن المفتونة بهن تسميهن «زهرات

Twitter: @ketab_n

البرتقال»؛ لكنها أثناء العشاء إذا ما استمر كلاس في الأكل بعد انتهاء الجميع، مغمساً البطاطا في الزبدة الساخنة، تضحك وتسميه «زهرة الحوذان»[1]، وإذا ما كانت شراهته فوق العادة، لامته ساخرة بالقول إنه أسوأ من نبتة «أبي مالس»[2]، قاصدة أنه بالنسبة للعائلة مثل تلك النبتة السخيفة بالنسبة إلى المزارع: جميل الهيئة لكنه بلا فائدة؛ مجرد عشب ضار.

ذات مساء صيفي، في أعقاب تعنيف حاد كان يستحقه، اغتمّ كلاس واغرورقت عيناه بالدموع، وأخلد إلى النوم معتكر المزاج. كان قد ألحّ على أختيه حتى أعطته كل منهما بعضاً من قطعة الجبن، وإضافة إلى قطعته هو، صارت ثقيلة كالرصاص.

كان فراش كلاس في علية[3] البيت. وعندما بُني البيت، أزيلت إحدى بلاطات القرميد ووُضعت مكانها بلاطة زجاجية تمدّ الحجرة بما يكفي من الضوء ليرتدي الصبيّ ملابسه في الصباح. أما في الليل، حين يكون الطقس لطيفاً، تدخل النسيم إلى غرفته.

---

(1) الحوذان: buttercup، هو عشب ذو زهر أصفر ولعل التشبيه جاء من اللون الأصفر المشترك بين الزبدة وهذه الزهرة (م).

(2) بالإنجليزية toadflax واسمه العلمي Linaria Vulgaris: نبات لونه أزرق أو أصفر برتقالي وهو معمّر يزرع لأزهاره وهو يشبه نبات الكتّان (م).

(3) العلية: الحجرة الواقعة تحت السقف مباشرة (م).

Twitter: @ketab_n

كانت نسمة عليلة تهب من غابة الصنوبر على المنحدر الرملي غير البعيد عن البيت. فوقف كلاس على مقعد ليتشمم عبق الصنوبر الحلوة. وخيّل إليه أنه رأى أضواء تتراقص أسفل الشجرة. شعر أن شعاعاً من هذا الضوء يلعب على مقربة منه وكأنه يهمس في أذنه في أثناء مروره. فكأن مئة من «سراج الليل»– تلك الحشرات التي تضيء ليلاً – حزمت نورها البارد في قنديل واحد. وخيل لكلاس أن تلك الأشعة العجيبة تتخذ شكل فتاة حسناء، إلا أنه ضحك لمجرد أن هذه الفكرة خطرت له. ومع ذلك، سرعان ما خيل له أن الهمس صار صوتاً بشرياً. مرة أخرى ضحك من نفسه، وانخرط في الضحك حتى نسي حزنه من تعنيف أمه له وبرقت عيناه بهجة، فيما وجه الصوت إليه هذه الدعوة: «تعال معنا إلى حيث الجبن الوفير».

ولكي يتأكد، دعك الولد النعسان عينيه وشنّف سمعه. فحدثته حاملة الضوء مرة أخرى: «تعال».

أيعقل ذلك؟ كان قد سمع العجائز يتحدثون عن نساء الغابة اللائي يهمسن ليحذرن المسافرين. وقد رأى بنفسه «حلقة جنيات»[1] في غابة الصنوبر، وإلى تلك كانت تلك المرأة المضيئة تدعوه.

(1) في معظم خرافات الجن هناك وصف لاجتماع الجن في حلقات رقص جماعي (م).

Twitter: @ketab_n

مرة بعد مرة دار الضوء المتحرك البارد حول سطح البيت ذي القرميد الأحمر الذي بدا أن القمر، وقد لاح فوق المداخن، يحوله إلى ألواح من فضة. وفيما ارتفع القمر أعلى في السماء، صار الولد بالكاد يتبين الضوء المتحرك، إلا أن الصوت لم يعد همساً كما في البداية، بل صار أكثر وضوحاً: «هناك جبن وفير، تعال معنا».

«لأر ما هناك على كل حال»، هكذا قال كلاس وهو يرتدي جوربيه الصوفيين السميكين ويستعد لنزول الدرج ثم يتسلل من البيت دون أن يوقظ أحداً. عند الباب انتعل زوج حذائه الخشبي، وحينئذ خرخرت القطة واحتكت بقصبتي ساقيه فقفز مجفلاً، لكنه ما إن تطلع إلى أسفل حتى رأى كرتي النار الصفراوين في رأسها وعرف أنها القطة فحسب. وبعد ذلك هرع إلى غابة الصنوبر باتجاه حلقة الجنيات.

ويا له من مشهد عجيب! في البداية ظنه كلاس دائرة من حشرات سراج الليل العملاقة. ثم رأى بوضوح أنها عشرات المخلوقات الجميلة، لا يكاد حجمها يزيد على حجم الدمى ولكنها نشيطة كالجداجد، وتشع ضوءاً كأنها قناديل مجنّحة. وكانت الجنيات، الممسكات بأيدي بعضهن بعض يطرن راقصات حول طوق الحشيش وكأن في ذلك أعظم متعهن.

Twitter: @ketab_n

وما كاد كلاوس يتجاوز الدهشة الأولى حتى أحس بنفسه فجأة محاطاً بالجنيات، فقد ترك بعض أقواهن الدائرة وقدمن إليه. وأحس أصابعهن الرقيقة تدفعه فيما همست إحداهن في أذنه، وكانت أجملهن على الإطلاق: «تعال، لابد من أن ترقص معنا».

فردت مجموعة منهن بصوت واحد: «الجبن وفير هنا، الجبن وفير هنا. تعال، تعال!».

وعندئذ شعر كلاس أنه بخفة كالريشة. وما هي إلا لحظة واحدة حتى وجد نفسه، ممسكاً بأيدي الجنيات، يرقص جذلاً مرحاً، وكان في ذلك متعة تعادل متعة الأعياد، فكأنه يرقص ضمن مجموعة من الفتيان والفتيات الذين يجوبون الشوارع في تلك المناسبات.

لم يكن لدى كلاس من الوقت ما يمكنه من إمعان النظر في الجنيات فقد ألهته المتعة. وراح يرقص ويرقص طوال الليل حتى تغير لون السماء في الشرق إلى الرمادي أولاً ثم إلى الوردي. وحينئذ هوى منهكاً وغلبه النوم في قلب حلقة الرقص.

Twitter: @ketab_n

شعر كلاس بسعادة غامرة إذ لم يعِ أنه منهك ولا أدرك أنه نائم. وظن أن رفيقاته من الجنيات ممن شاركنه الرقص تحولن فجأة إلى نادلات يأتينه بشتى أنواع الجبن ويطعمنه إياها بأيديهن بعد قطعها بسكين ذهبي. ما ألذّ طعمها! شعر أنه يستطيع أن يأكل كل ما تاق إليه طوال عمره من الجبن، وأنه سيفعل. فليس هناك أم تعنفه أو تلوح بإصبعها في وجهه. يا للروعة!

لكنه شيئاً فشيئاً أراد أن يكف عن الأكل ويستريح قليلاً، فقد بدأ فكاه يؤلمانه وشعر بثقل رهيب في بطنه وكأن فيها قذائف مدفع، وأخذ يلهث بشدة محاولاً التقاط أنفاسه.

إلا أن الجنيات لم يسمحن له بالتوقف عن الأكل، فالجنيات الهولنديات لا يعرفن الكلل. ورحن يطرن إليه من كل الجهات- من الشمال والجنوب الشرق والغرب - حاملات الأجبان التي يسقطنها على الأرض حوله، حتى تراكمت أكوام الجبن المدورة صانعة سوراً يهدد بتطويقه وحبسه، في البداية، ثم سقفاً فوق رأسه. كانت هناك كرات حمراء من إيدام[1]، وأخرى كروية لونها زهري وأصفر من جودا، وأخرى رمادية مستطيلة على شكل أرغفة الخبز من ليدن.

(1) مدينة هولندية تشتهر بصناعة الجبن الذي يحمل اسمها (م).

Twitter: @ketab_n

نظر إلى خطّ الأفق في غابة الصنوبر ويا للرعب! رأى أطول الجنيات وأقواهن يدحرجن الأجبان الضخمة المستديرة المفلطحة من فريسلاند. وكانت كل قطعة منها بحجم عجلة عربة تكفي لتغذية فوج كامل من الجند. وكانت الجنيات يدحرجنها أمامهن كأنها أطـواق، ويصحن ضاحكات ضاربات قطع الجبن بقضيب خشبي حتى تمضي قدماً. جبن المـزارع، جبن المصانع، جبن ألكمار وكتتويج لذلك كله جبن ليمبورج[1] الذي لا يطيقه كلاس جراء رائحته القوية. وسرعان ما تكاثرت الكتل والكرات حول الولد حتى شعر، ناظراً إلى أعلى، أنه ضفدع في بئر. وصاح حين أحس أن جدران الجبن الجافة تترنح على وشك الوقوع عليه، بيد أن الجنيات حسبنه يغني. فكونهن لسن من البشر، فإنهن لا يعرفن بما يشعر الأولاد.

وفي النهاية، حاملاً شريحة سميكة في يد وكتلة هائلة في الأخرى، ما عاد بوسعه أن يأكل المزيد من الجبن؛ مع أن الجنيات بقيادة ملكتهن وهن منتحيات جانباً و يحلقن فوق رأسه، مازلن يلححن عليه لكي يأخذ المزيد.

(1) جودا وليدن وفريسلاند وألكمار وليمبورج كلها مدن هولندية بعضها مشهور بأجبانه حتى اليوم (م).

Twitter: @ketab_n

في هذه اللحظة، والخوف من الانفجار يراوده، رأى كلاس كتل الجبن كبيرة مثل بيت وهي تتهاوى وتسقط عليه. وبصرخة رعب، ظن نفسه يسحق فيصير مفلطحاً مثل جبن فريسلاند.

لكنه لم يكن قد سحق. حين استيقظ وفرك عينيه، رأى الشمس الحمراء تشرق على كثبان الرمل. كانت العصافير تزقزق والديوك تصيح في كل مكان حوله، وكأنها جوقة تؤدي له التحية. وفي هذه اللحظة بالذات دقت ساعة القرية. تحسس ملابسه فألفاها مبتلة بالندى. واعتدل جالساً لينظر حوله. لم يكن هناك جنيات، لكنه وجد في فمه حفنة من الحشيش كان يمضغها بنهم.

لم يحك كلاس لأحد قطّ قصته مع الجنيات، ولا استقر رأيه على إجابة عن السؤال: هل تركنه لأن بيت الجبن الذي في أحلامه تهاوى، أم لأن ضوء النهار قد طلع؟

Twitter: @ketab_n

الأميرة ذات العشرين تنورة

منذ زمن طويل، طويل، قبل أن يتفتّح في هولندا زهر الكتان الأزرق، حين كانت الأمهات الهولنديات يرتدين جلد الذئب، كانت هناك أميرة صغيرة محبوبة بشدة من أبيها الذي كان ملكاً عظيماً أو قائد جيش. فقد اعتادت أن تدخل إلى الحسن وتحب كثيراً رؤية حسنها. وبما أنه لم يكن هناك في زمنها مرايا من معدن أو زجاج، كانت تدخل الغابة وتتأمل انعكاس وجهها الباهر على أسطح الغدران وقنوات المياه العميقة الهادئة، من دون أن تملّ ذلك يوماً.

غير أن هذه الأميرة الصغيرة كانت في بعض الأحيان شديدة الشقاوة، ولم تكن أخلاقها حينئذ تشبه حلاوة وجهها. فقد كانت تلعب في الرمل وتتقلب بين أوراق الشجر والأدغال، في الغابة، حتى تتجعد خصلات شعرها وتتسخ. وحين كانت مرضعتها، لكي تصلح ما أفسدته، تسرّح لها شعرها بمشط حجري – فلم يُعرف على أيام الأميرة سوى هذا النوع من الأمشاط – كانت

Twitter: @ketab_n

تمتعض وتغضب وكثيراً ما تضرب الأرض بقدميها. وعندما يبلغ غضبها ذروته، تنعت مرضعتها أو مربيتها بأنها «أورخص»، وهو حيوان كبير مثل الثور البري[1]. فكانت الخادمة تتحسس وجهها وتقول: «أنا أورخص؟ يا للبشاعة!»، ثم تتحسس جبينها لتتأكد أنه لم ينبت لها قرون.

وقد ضاقت هذه المرضعة – صاروا يسمونها مربية، مع مرور السنين – ذرعاً بسلوك الأميرة الصغيرة المشاغبة هذه. وشكت لأمها من أن ابنتها نعتتها أورخص، الأمر الذي جعل الأميرة تُظهر المزيد من سوء السلوك فصارت تتقلب أكثر بين أوراق الشجر حتى تتشابك خصلات شعرها وبالكاد تتمكن المربية من تمسيده.

وبدا عقاب الصغيرة بلا فائدة سواء أكان بالصفع على الأذنين، أو قرص الذراع، أو الضرب على المؤخرة. حتى إن الأم والخادمة جربتا حرمانها من العشاء، لكن هذا لم يأت بنتيجة أيضاً.

ثم ذهبت المربية والأم معاً إلى أبيها الملك تشكيان أمرها، فانتابه القلق. فهو قادر على مقارعة أعتى الرجال بهراوته ورمحه،

(1) اسم للثور البري الأوروبي (م).

Twitter: @ketab_n

بل إنه قادر حتى على قتال العمالقة بسيفه وفأسه، أما تأديب صغيرته التي يحبها مثل عينيه – فذلك مما يفوق احتماله، خاصة أنها كانت كل ذريته وبالتالي فكل آمال العائلة معلقة عليها. تساءل الملك عن الأسلوب الذي ستحكم به الرعية، إذا ما مات فأصبحت هي الملكة. غير أن ما طمأنه، بالرغم من شقاوتها، أنها مثله دائماً طيبة مع الحيوانات. كان حيوانها المدلل عجل أورخص مسكين قتل الصيادون أمه في الشتاء. وقد دأبت الأميرة على تدفئته وإطعامه من راحة يدها كل يوم.

ومع ذلك، كان الملك مكتئباً معتكر المزاج حين خرج يتمشى في الغابة، مفكراً كيف يصنع من ابنته المشاكسة سيدة حسنة الخلق، خاصة أنها تنمو بسرعة حتى كادت تصبح امرأة طويلة ذات حسن وجمال.

حين كان الملك ولداً صغيراً كان شديد الطيبة مع كل كائن حي، البري والمروض، الأبكم والأصمّ، وحتى مع أشجار الغابة. وحين كان أميراً، ما كان ليسمح للحطابين بقطع شجرة بلوط قبل أن يستأذنوا الجنية التي تسكن في جذعها.

كانت هناك بلوطة كبيرة، على وجه الخصوص، بالقرب من قصر أبيه الملك، قيل إن الأطباء وجدوا أطفالاً رضعاً على

Twitter: @ketab_n

أغصانها، أعادوهم إلى أمهاتهم. وكان الأمير الصبي شديد الحرص على هذه الشجرة. فقد تعلم من أحد الحكماء كيف يقلم أطرافها الميتة ويبعد الديدان وينذر الآتين بهدف قطع الغصون أن يبتعدوا حتى في أيام عيد يول[1] الذي يتزامن مع عيد الميلاد.

ذات مرة، عندما كان بضعة صيادين يطاردون أنثى أورخص شابة، مع عجليها، فوصلوا إلى حديقة الملك، جرى الأمير - رغم أنه لم يكن سوى صبي - وطرد هؤلاء الأجلاف، ثم أوى وأطعم عائلة الأورخص حتى صارت صحيحة سمينة. وبعد ذلك أرسل صياداً ماهراً ليقلد صوت الأورخص الأم، حتى يجلب الأورخص الأب إلى أطراف الغابة للقائها، ثم أطلق الأورخصات الأربعة في حال سبيلها وأسعده أن يرى تلك الوحوش البكماء تتحاب فيما بينها.

وذات يوم، بعدما كبر الأمير الصبي وأصبح رجلاً وكان قد أمضى في الملك ردحاً من الزمن فنسي كل ما يتعلق بذلك الحادث من سنواته الأولى، خرج يتمشى في الغابة.

فجأة هب نسيم رقيق وراحت وريقات شجرة البلوط العجوز تحفّ هامسة. وسرعان ما اتضحت الكلمات، فقالت الروح التي

(1) عيد الشتاء الوثني عند القبائل الجرمانية وبعد الوثنية صار يحتفل به في يوم الميلاد (م).

Twitter: @ketab_n

في البلوط: «لقد رأيت ألف عام تمر منذ كنت جوزة بلوط مزروعة هنا. وخلال لحظات، سأموت وأتهاوى. قطّع جسدي أضلاعاً واصنع منه تنورة خشبية كالبرميل، لابنتك. وحين تسوء أخلاقها، ألبسها إياها حتى تتعهد بأن تصبح حسنة السلوك».

وحزن الملك لفقدان الشجرة العجوز النبيلة التي لعب وآباؤه في ظلها وهم أطفال فتغير وجهه.

لكن البلوطة واسته قائلة: «هون عليك وابتهج يا صديقي، فسيتبع هذا شيء أفضل. عندما أموت، ستجد في هذه البقعة زهرة زرقاء تنمو وفي مكان هذه الغابة ستمتد حقول تنتشر الشمس فوقها. وإذا صارت ابنتك حسنة الخلق، ستغزل الشابات شيئاً أجمل من التنانير الخشبية. ولكن قد أصبح نسياً منسياً، فهل تقبل من الآن فصاعداً أن يصبح اسم عائلتك تين أيك»[1] (وتعني بالهولندية «عند البلوطة؟).

في تلك اللحظة، اندفع أورخص ضخم إلى جوف الغابة. كان شعره الطويل وعرفه المجعد شائبين. وظناً منه أن الأورخص على وشك مهاجمته، سلّ سيفه ليقاتل ذلك الوحش الضاري الذي بدا أنه يزن زهاء الطن.

(1) تين آيك اسم عائلة هولندية شهيرة (المؤلف).

Twitter: @ketab_n

إلا أن الأورخص توقف على بعد عشرة أقدام وراح يخور، لكن خلال دقيقة أو اثنتين، تحول خواره إلى صوت بشري وسمع الملك هذه الكلمات: «إني أموت مع البلوطة فنحن أخوان مسحوران منذ ألف عام، وسيبطل العمل الذي سحرنا خلال لحظات. لا شجرة ولا أورخص يمكن أن ينسى طيبتك حينما كنت أميراً. وحالما تتحرر روحانا ويعود كلانا إلى دارنا في القمر، ابضع قرني الأيمن بالمنشار واصنع منه مشطاً يصفف خصلات ابنتك المتجعدة فتصير ملساء كالحجر».

بعد لحظة، هّت عاصفة دفعت الملك للاحتماء خلف الصخور القريبة. ولم تمر لحظات حتى توقفت الريح وصفت السماء. نظر الملك وإذا بالبلوطة قد وقعت بكامل طولها وتمدد الأورخص إلى جوارها وقد فارق الحياة.

عندئذ اقترب حطابو الملك وقد جاؤوا بحثاً عن سيدهم اعتقاداً منهم أنه في خطر. فأمرهم بخلع قرن الأورخص الأيمن وتقطيع جزء من البلوطة أضلاعاً. وفي اليوم التالي صنعوا تنورة خشبية ومشطاً من القرن. وكانت مثل هذه الأشياء من الحداثة بحيث جاءت كل امرأة في المملكة لتراها.

Twitter: @ketab_n

بعد ذلك، سمى الملك نفسه سيد أرض تين آيك، وصار هذا اسم عائلته الذي حمله خلفه من بعده إلى يومنا هذا. وحين كانت الأميرة تظهر سوء خلق، صارت تُجبر على ارتداء التنورة الخشبية، الأمر الذي يدفع الصبيان والبنات إلى أن يشيروا إليها بالبنان ويسخرون منها، وهو عقاب شديد.

ولكن شيئاً عجيباً حدث، فقد اتضح أن الأميرة تزداد وداعة وحسن معشر مع كل مرة تصفف لها فيها الخادمة شعرها. وكثيراً ما شكرت مربيتها قائلة إنها تحب أن تملس خصلاتها المجعدة بالمشط الجديد... ولدرجة استعطاف أبيها في السماح لها بامتلاك مشط جديد لكي يكون لها وحدها. ولم يمر وقت حتى أدهشت مربيتها وأبويها بتصفيف شعرها وتجميل خصلاته المجعدة بنفسها. في الحقيقة كان التغيير الذي حل بالأميرة من الروعة بحيث لم تضطر إلى ارتداء التنورة الخشبية كثيراً. وبعد عام أو اثنين ما عادت ترتديها قطّ حتى كاد النمّامون ينسون الحكاية برمتها.

ذات يوم صيفي، بينما تتمشى الأميرة في المساحة المفتوحة المشمسة حيث كانت شجرة البلوط، لمحت زهرة زرقاء قطفتها وشكتها في شعرها. وحين وصلت إلى البيت،

Twitter: @ketab_n

أعلنت خالتها العجوز - وكانت قد زارت أراضي الجنوب - أن هذه هي زهرة الكتان.

خلال هذا الربيع، نبتت ملايين الحشائش الخضراء متناهية الصغر حيث كانت الغابة. وحين جاء الصيف بلغت النباتات نصف ياردة طولاً. تعلمت النسوة وضع السويقات في الماء حتى يتقشر غلافها الخارجي الخشن ثم يأخذن الخيوط الحريرية من داخل السويقات ويفتلنها على مغازلهن، ثم ينسجنها قماشاً جميلاً.

كانت الخيوط حين تُفرد على الحشيش يبيّضها ضوء الشمس، ثم يصنع منها القماش والتخاريم.

«فلنسمّ المكان جرينيفلد» (الحقل الأخضر)، هكذا صاح الشعب الفرح، حين رأى كيف أصبحت الأرض خضراء حيث كانت الغابة الداكنة. ومن يومها أصبح اسم هذه البلدة الحقل الأخضر.

الآن حين رأت الأميرة أي ملابس جميلة تصنع من الكتان الأبيض الناصع كالثلج، اخترعت زياً جديداً أسمته «روك» وكان مؤلفاً من جزئين: الجزء أعلى الخصر، سمته بوفن روك،

Twitter: @ketab_n

وأسفل الخصر: بندن روك (بوفن بالهولندية تعني أعلى، وبندن تعني أسفل). مع مرور الوقت، فيما تنتج الأنوال المزيد من الكتان الأبيض الرائع، فصلت الأميرة تنورة جديدة وارتدتها. فرحت بها لدرجة أنها أرادت المزيد. واحدة بعد أخرى، كانت تلف التنانير حول خصرها بحزام، حتى صارت ترتدي عشرين تنورة في وقت واحد. وكانت فخورة بتنانيرها رغم أنها جعلتها تبدو كالبرميل. لكن ما إن رأتها أمها والخادمة وكل نساء الحقل الأخضر، صغيرات وكبيرات، هكذا تؤلف الزي الجديد، حتى تبعنها في ارتدائه. وصارت العادة أن ترتدي النساء على الأقل عشرين تنورة، إذ اعتُبر هذا العدد هو الرقم المناسب.

وهكذا تأسست قاعدة جديدة بين الرجال أيضاً، فقد صار العرف أن يهدي الخطيب وحده أو بمساعدة أقربائه من النساء تنورة أو أكثر إلى حبيبته لتمتلئ خزانتها.

وساد هذا الزي – وما زال – بين نساء السواحل. فهن يراكمن التنانير فوق بعضها بعض سواء أكن سمينات أم نحيفات، طويلات أم قصيرات، ويهززنها بخيلاء وهن يتمشين أو يذهبن إلى السوق، يصحن على سمك الرنكة الطازج في الشوارع، أو وهن يحكن داخل بيوتهن أو على عتباتها. وفي

Twitter: @ketab_n

بعض أنحاء البلاد، لا شيء يسعد الفتاة مثل أن يهديها أحد تنورة جديدة. صارت الموضة أن ترتدي المرأة ملابسها لتبدو مثل برميل صغير.

على مر السنين، بنى الرجال سداً ليحصلوا على وفرة من المياه في الشتاء بما يكفي لنقع سويقات الكتان. وجعلت صناعة الكتان الشعب غنياً. مع الوقت، نمت مدينة تدعى روتردام أو السد (دام) حيث ينقع (روت) الكتان حتى يصنع منه النسيج.

ولأنه حيث كانت غابة بلوط بغدير ونبع، صار الآن جدول فضي يقطع الحقول الخضراء بوداعة فقد اتخذ شعار المدينة ورايات سلاحها لوني الأخضر والأبيض دليلاً على النماء والفضة، بحيث يقع الأخضر مرتين والأبيض مرة واحدة. وإلى اليوم على رايات المدينة العظيمة وشاراتها، وعلى المداخن الهائلة للبواخر التي تمخر عباب المحيط من أرض إلى أرض، يرى المرء تلك العصابة البيضاء العريضة التي تتوسّط شريطين خضراوين.

Twitter: @ketab_n

القطة والمهد

في العصور الأولى، حين كان أجداد الأوائل يسكنون الغابات ويأكلون جوز البلوط وينامون في الكهوف ويلبسون جلود الحيوانات المفترسة، لم يكن لدى هؤلاء الأجداد خيل أو بقر أو قطط. لم يصاحبهم أو يساعدهم من الحيوان سوى الكلاب. وكان جنس الرجال وجنس الكلاب أشبه ببعضهما بعض مما هما عليه الآن.

ومع ذلك، كانت لدى الناس معرفة بالنحل. فكانت نساؤهم يجمعن العسل ويصنعن منه الميد[1]. وبما أنهم ما كانوا يعرفون السكر، فقد كان أطفالهم يستمتعون بطعم العسل أكثر من أي شيء آخر، وكان الشيء الحلو الوحيد المتوافر لهم.

شيئاً فشيئاً، جيء بالبقر إلى البلاد، ولأن التربة الهولندية تناسب الحشيش، فقد توافر الطعام للبقر. حتى عندما تكاثرت تلك الحيوانات، شرب الناس الحليب وتعلموا أن يصنعوا الجبن

(1) خمر العسل (م).

Twitter: @ketab_n

والزبدة. فظهرت على الأولاد والبنات الهولنديين السمنة والصحة الجيدة.

كانت الثيران من القوة التي تمكنها من جرّ زنود الأشجار أو المحراث على الأرض. ورويداً رويداً، قطعت الغابة واستبدلت بمروج الحشائش المليئة بالأزهار ذات الألوان الباهرة. بنيت البيوت وأصبح الناس أغنياء سعداء.

غير أنه كان لا يزال هناك العديد من البشر غلاظ القلوب الأشرار في هذه الأرض. وأحياناً ما يأتي الفيضان[1] فيغرق الماشية ويغطي الحقول بالرمل أو الماء المالح. في مثل تلك الأيام كان يشح الطعام، لذا لا تكتب الحياة لمن يولد من الرّضع ولا يجد ما يأكله كل طفل صغير. وكانت البنات من الأطفال بالذات يتركن حتى يمتن، لأن الحروب شائعة ولا حاجة إلا للذكور الذين سيصيرون - حين يبلغون الرشد - مقاتلين أشداء.

صار عرفاً أن تعقد العائلات مجلسا تقرر فيه إذا ما كان يجب أن تحتفظ برضيع ما، إلا أن العادة تقضي بأنه إذا ما أعطى أحد للرضيع ولو نقطة حليب أو أي طعام كان، يحق لذلك الرضيع أن يحيا ويكبر. وإذا لم يعطه أحد حليباً أو عسلاً، فمصيره الموت.

(1) عقاباً للبشر على شرورهم (م).

Twitter: @ketab_n

ومهما أحبت الأم طفلها، ما كان يُسمح لها أن تضع الحليب على فمه إذا ما حرم ذلك كبار العائلة أو الجدة في البيت. فعلى العروس الصغيرة وقد انتقلت إلى بيت زوجها أن تطيع أم زوجها لأنها الآن بمثابة ابنة لها وفرداً من العائلة. كان الجميع يعيشون معاً تحت سقف واحد، وكانت الجدة تتحكم في كل النساء والفتيات اللائي يعشن في البيت.

هكذا كان العالم، حين كان أجدادنا وثنيين، ولا يعطفون دائماً على صغارهم مثل آبائنا وأمهاتنا الآن. كانت الجدة العجوز تغضب مراراً، عندما تنجب زوجته بنتاً، لأنها تنتظر وُلداً يكبر ويصبح مقاتلاً بالسيف والرمح. وكثيراً ما كانت العروس الحلوة تعاني مع حماتها بعد انتقالها إلى بيت زوجها إذا تأخرت في إنجاب صبي. في تلك الأيام كانت لكلمتي «هيرمان» (رجل الحرب) و«جيرمان» (الألماني أو الهولندي) معنى واحد.

وعندما جاء المبشرون الأفاضل إلى فريسلاند، كان ضمن أول من تلقى عنهم الكتاب المقدّس عائلة رجل يدعى آلفريد الذي عاون المبشّر، مع عروسه، التي تنصرت هي الأخرى، على بناء كنيسة. ومع الوقت ولد رضيع جميل في العائلة وسعدت به العائلة. لقد أحبوا هبة الله الصغيرة تلك كما يحب الآباء والأمهات أبناءهم اليوم.

Twitter: @ketab_n

لكن حين ذهب أحدهم وأخبر الجدة التي بقيت على وثنيتها - وكانت تكره الدين الجديد لأنه يدعو إلى المحبة والسلام - أن المولود فتاة، ثارت ثائرتها ولولا عرجها لذهبت من فورها للإمساك بالمولودة ووأدها. غير أنها لم تجد عكازتها لأن القابلة العارفة بسوء خلق الجدة بادرت إلى إخفائها. وقد غضبت العجوز لأنها لا تريد المزيد من البنات في البيت الكبير، إذ كان رأيها أن فيه عدداً أكبر من اللازم من الأفواه التي لابد من إطعامها. فقد كان من الصعب الحصول على الطعام ولم يكن هناك من يكفي من المقاتلين للدفاع عن القبيلة. كانت نيتها أن تمسك بالمولودة الجديد وترميها للذئاب.

إلا أن جارتهم القابلة اتقت شر العجوز وأخفت عكازتها لكي تنقذ حياة المولود في حال كان بنتاً. فقد كانت القابلة امرأة صالحة تعلمت أن الرب يحب البنات والصبيان على حد سواء.

فلما سمعت القابلة العجوز ترغي وتزبد وهي تفتش عن عكازتها، ركضت إلى إناء العسل وغمست سبابتها فيه ثم وضعت بعض قطرات العسل على لسان الصغيرة ثم ناولتها عبر الشباك لبعض صديقاتها اللائي كن ينتظرنها خارج البيت. فقد كانت تعرف العرف: إذا ما ذاق الرضيع الطعام، يسمح له بالحياة.

Twitter: @ketab_n

أخذت المرأة الطيبة الطفلة إلى بيتها وغذتها باهتمام. ثقبت قرن ثور لتصنع منه قمعاً تمرر عبره الحليب الدافئ من ضرع البقرة إلى فم الرضيعة. وخلال بضعة أيام، باتت الصغيرة قادرة على شرب الحليب ببطء من القرن وقد أمسكته لها إحدى الفتيات. فصارت تكبر كل يوم، وهي لا تزال طول الوقت في مخبأها.

ثبط عزم العجوز الحمقاء فهي لم تتمكن قطّ من معرفة مكان الرضيعة الآخذة في النمو. وقد صنع لها أبوها في السرّ مهداً وكثيراً ما كان اصطحب زوجته لزيارة طفلتهما. وبات الكل يناديها هونيغ – جي، أي الصغيرة الغالية[1].

وفي تلك الفترة تقريباً، جيء بالقطط إلى البلاد. كان الأطفال يدللونها لدرجة أن بعض الأبقار بدأت تغار من الاهتمام الموجه للقطة وصغارها. ففي تلك الأيام عاش الناس والماشية جميعاً تحت سقف واحد طويل. وتعلم الأطفال معرفة الوقت – سواء أكان صبحاً أو ظهراً أو ليلاً – بالنظر إلى عيون القطط التي بدا أنها تنفتح وتنغلق كالأبواب.

بدت القطة السمينة التي جيء بها إلى البيت الذي تعيش

(1) Honey : وهي بالهولندية هونيغ، تعني بالإنجليزية العسل والشخص العزيز أو الغالي في آن معاً (م).

Twitter: @ketab_n

فيه هونيغ جي شديدة التعلق بالصغيرة وقد لعب كلاهما كثيراً مع بعضهما بعض. وكثيراً ما كان يقال إن القطة تحب الطفلة أكثر من هريراتها أنفسها. وبات الجميع يسمّي الحيوان الحنون بكنية دوبلت - جي، أو «الصغيرة المضاعفة»، لأن حبها - مقارنة بأكثر أمهات القطط - كان مضاعفاً أو مضروباً في اثنين. فحين كانت هريراتها الصغيرة المكسوة بالفرو صغيرة جداً، كانت القطة تحملها من مكان إلى آخر في فمها، غير أنها لم تجرب البتة حمل الطفلة الرضيعة بهذه الطريقة، وكأنها تدرك أن ذلك يؤذيها. حقاً إن «دوبلت - جي» كثيراً ما تساءلت لماذا يولد أطفال البشر عراة ضعفاء إلى هذا الحد؛ ففي حين بلغت هريراتها عمراً تستطيع فيه أن تغذي أنفسها وتجري وتمرح بذيولها مع بعضها بعض، كانت هونيغ-جي لا تزال غير قادرة حتى على الزحف.

غير أن أخطاراً أخرى ظلت تحدق بالفتاة الصغيرة. ذات يوم، بينما الرجال في الخارج يصطادون والنساء في الغابة يجمعون جوز البلوط، جاء فيضان عظيم وجرف كل شيء إلى النهر الكبير ومنه باتجاه البحر.

فماذا كان مصير طفلتنا، أو سيكون؟ هكذا تساءل أبوا هونيغ

Twitter: @ketab_n

جي عند عودتهما ليجدا البيوت قد جرفها الماء ولا أثر لابنتهما الصغيرة. كذلك دوبلت – جي وهريراتها وكل الأبقار: اختفت هي الأخرى جميعاً.

ما حدث أنه، عندما هجم الفيضان وانهار البيت كانت الطفلة تغط في نوم عميق وقد قفزت القطة تاركة هريراتها التي كبرت الآن إلى حد كبير، وقفزت فوق مهد الصغيرة فانجرفا معاً. وسرعان ما وجدا نفسيهما وحيدتين ولا شيء مألوفاً على مدى النظر إلا شيئاً واحداً مضحكاً. كان ذلك الشيء فردة حذاء خشبي بداخلها صوص أصفر لا يزيد عمره على بضعة أيام. كان الصوص يلعب في الحذاء حين جاء الفيضان فجرفه من تحت منقار الدجاجة العجوز التي غرقت بسرعة مع بقية صغارها جميعاً.

أبعد فأبعد، حمل الفيضان الهائج الطفلة والقطة حتى جن الليل وأعتمت الدنيا. ولبضع ساعات ظلا ينجرفان إلى أن أسعدهما الحظ بانزلاق المهد عبر دوامة عابرة إلى حافة قرية على الطريق. وهناك ظل المهد يدور حول نفسه دورة بعد دورة وكان من الممكن أن يحمله الفيضان الأقوى من الدوامة الذي علا هديره فيما ارتفع منسوب الماء.

من المعروف أن القطة يمكنها أن تبصر ليلاً أفضل مما تبصر

Twitter: @ketab_n

نهاراً، إذ كلما زاد الظلام اتسعت عيناها. ففي ضوء الشمس الصريح، وقت الظهر، تنغلق الأبواب الداخلية لعيون القطط حتى تصبح فرجات صغيرة، أما في الليل فإنها تنفتح واسعة. ولهذا السبب كان باستطاعة الأطفال أن يعرفوا الوقت بالنظر إلى عيون القطط في الأيام التي سبقت صناعة ساعات الحائط واليد. وأحياناً ما كانوا يسمون قطتهم كلوك - أوج، ما يعني عين الساعة أو جرس الساعة، لأن ساعات الأجراس أقدم من الساعات ذات الإبرة الدوارة، ولأن الأجراس في هولندا تدق لتعلن مرور الساعة و ربع الساعة.

نظرت القطة إلى أعلى فرأت برج الكنيسة يلوح في الظلام، ومن فورها بدأت تموء بكل ما أوتيت من قوة آملة أن يسمعها أحد ممن في البيوت القريبة من ضفة النهر. لكن بدا أن أحداً لا يسمع أو يهتم. وفي النهاية حين كادت تموت القطة من جهد المواء لاح ضوء في شباك أحد البيوت مما أظهر أن هناك أحداً قد استيقظ وتحرك. كان هذا ولد اسمه ديرك على اسم القديس ثيوديرك[1] الذي كان أول من بنى كنيسة في تلك القرية منذ زمن طويل. حينئذ فتحت القطة فمها وشعاب رئتيها وأصدرت

(1) اسم جرماني دارج يعني حرفياً ملك الناس ومنه أسماء مثل ديريك وديتريش (م).

Twitter: @ketab_n

صيحة هائلة، ما أيقظ أقرباءها في البلدة فرد كل توم وكيتي[1] بالقرية حتى صار هناك جوقة من مواء القطط.

سمع الولد هذه الجلبة وأسرع نازلاً الدرج ثم فتح الباب وأصاخ السمع. أطفأت الريح الشمعة التي في يده، لكن الولد الشجاع تقدم باتجاه صوت القطة. وعندما وصل إلى النهر، خلع خفيه الخشبيين بسرعة وقفز في المياه الهائجة وأمسك بطرف المهد وسحبه إلى الشاطئ. ثم أيقظ أمه وأراها ما أكسبته إياه شجاعته. كان منظر الطفلة وهي تضحك وتناغي وتربت على زجاجة الحليب التي هي قرن ثور، ناهيك عن طريقتها في ركل الهواء ومد أصابع قدميها فرحة بالحليب الدافئ – الذي أحضروه لها – مما يبهج القلب. وقرب الموقد، في وسط البيت، أعد للقطة فراش من القش وما كادت تخرخر مبتهجة حتى لحقت بالطفلة في نوم عميق.

وهكذا أنذرت القطة الولد، فأنقذ الولد الطفلة التي رحب بها بحفاوة في بيت لم يكن فيه بنات ولا أطفال غير ذلك الولد. وعندما كبرت هونيغ – جي وأصبحت فتاة صغيرة، بدت جميلة كالأميرة وفي الكنيسة تزوجت من

(1) توم، كيتي، بوسي: من الأسماء الرائجة للقطط (م).

Twitter: @ketab_n

ديرك! كان ذلك في شهر أبريل والعالم كله يستيقظ على الزهور، وكان الهواء حلواً بأريج البراعم حين خرجت زفة العرس من الكنيسة.

وقبل حلول رأس السنة الجديدة، كان يرقد في ذلك رضيع ذكر هدهدته الهزازات نفسها، حين أحضروه إلى جرن المعمودية[1] سمته الجدة الطيبة لوديجر[2]. وعندما كبر أصبح المبشر العظيم الذي ما زال اسمه في هولندا حتى اليوم بعد ألف عام معروفاً في كل بيت. وقد كان هو الذي طرد الجنيات الشريرات والسحرة الحقراء والأرواح الخبيثة والأمراض المخيفة. غير أن أحسن ما عمله أنه طرد «عضة العين» وهو ما كان يطلقه الناس على السحر. وهو أيضاً صعب الحياة على عفاريت الإيلفات[3] والأشباح التي تضلل الناس.

وبعد ذلك، غدا من السهل على الأرواح الصالحة التي تعيش حيوات نبيلة بقلوب طاهرة أن تتكاثر ويفتح الله عليها بالخير.

---

(1) حيث يعمد المسيحيون بالماء (م).
(2) اسم قديس مسيحي بدأ حياته مبشراً في هولندا (م).
(3) الإيلف elf مخلوق أسطوري كالجن يشبه القزم ويسكن الحدائق والحقول وقد استعيض عن هذه الكلمة وكلمة kabouter (وهو الإيلف الأسمر) وكذلك كلمة imp كلها بكلمة عفريت، بينما ترجمت كلمة fairy الأعم دلالة بجني أو جنية حسب السياق (م).

Twitter: @ketab_n

لقد طردت الذئاب أو قتلت وقلّ عددها، فيما تضاعفت أعداد الماشية والخراف حتى حصل الجميع على معاطف من الصوف وأصبح لكل فرد في البلاد بقرة.

لكن ظلّ الناس يعانون من الفيضان الذي ظل بين الحين والآخر يغرق الماشية والبشر، ومن موجات الجزر التي تحمل كل شيء معها إلى عمق البحر. حينئذ علّم المبشر الصالح الناس بناء السدود التي تحجب عنهم ماء المحيط وتبقي الأنهار في مجاريها بين ضفتين. وظلت الفيضانات تقل حتى صار حدوثها نادراً. وزار البلاد سانتا كلاس (النطق الهولندي لسانتا كلوز أو بابا نويل، كما يسمى القديس نقولا الذي يحضر الهدايا للأطفال في عيد الميلاد) ليبقي المحبة والطيبة والبهجة أرواحاً حية في قلوب الناس إلى الأبد.

أخيراً، بعد ما يقرب من مئة عام ماتت هونيغ – جي الرضيعة التي أصبحت عجوزاً طيبة عزيزة على الجميع، تهيء الطريق لحضور سانتا كلاس. وماتت معها دوبلت – جي القطة ذات الأرواح التسع. وقد دفنت العجوز في فناء الكنيسة وحنطت القطة التي أحبها الجميع من هريرات وصغار وكبار. على مر

Twitter: @ketab_n

السنين، بعدما تمزق وسقط ذيلها وفروها ثم انكسرت عيناها الزجاجيتان، جاء نحّات ماهر ونحت تمثالاً لدوبلت – جي ما زال يقف فوق شاهد هونيغ – جي في الكنيسة. كل عام، في يوم سانتا كلاس، في السادس من ديسمبر، يضع الأطفال طوقاً جديداً حول عنق التمثال ويتذكرون القطة التي أنقذت حياة الرضيعة.

Twitter: @ketab_n

الأمير نول والآنسة بياض الثلج

في قديم الزمان، قبل أن يأتي الرومان إلى البلاد، حين كانت الغابة خاضعة لحكم الجنيات، عاشت بنت تحت شجرة بلوط. في طفولتها سموها بندلكين. كان لها أربعة إخوة يحبون أختهم الصغيرة بشدة ويعملون كل ما في وسعهم لإسعادها. وكان أبوها السمين صياداً شهيراً، حين يجوب الغابة لم يكن لينجو من سهامه أو رمحه أو شراكه دب ولا ذئب ولا أورخص ولا ذكر أيل[1] ولا غزال، ولا أي حيوان كبير آخر. وقد علم أبناءه الصيد إلا أنه علمهم أيضاً أن يكونوا طيبين مع المخلوقات البكماء التي يصطادونها. وخاصة حين تُقتل الأم من الحيوان، علم أبناءه الأربعة أن يعتنوا بالأشبال والجراء والهريرات. أما بالنسبة للحيوانات الأصغر حجماً، الثعالب والأرانب البرية والعرس والأرانب وحيوان القاقم[2]، فقد كانت من الكثرة ما جعل الأب يطلق العنان لأبنائه في صيدها فاستمتعوا كثيراً بتلك الرياضة.

ودائماً ما كان بيتهم الواقع أسفل شجرة البلوط عامراً باللحم

(1) نوع من الأيائل (م).
(2) حيوان الإرمين المعروف بفروه وهو من فصيلة ابن عرس (م).

Twitter: @ketab_n

والفرو. وكان الإخوة الأربعة يأتون بجراء الحيوانات لأختهم، فدائماً ما كان عند الفتاة وفرة من الحيوانات المدللة التي تلعب بها من صغار الدببة والذئاب والأورخص وهريرات القطط البرية. حين كانت الحيوانات من الصغر بحيث تتغذى على الحليب، كانت تستمتع بالمرح معها. وحين كبرت بعض الشيء كانت ترتع وتتريض بصحبتها وكأنها وإياها أفراد أسرة واحدة. كان أخوها الأكبر يراقب بحرص خوفاً من أن تعض الوحوش الصغيرة أخته أو تخدشها بمخالبها وقد بات حجمها كبيراً، فقد كان على علم بالطبيعة العنيفة للمخلوقات البرية. غير أن الفتاة حازت سطوة رائعة على حيوانات الغابة تلك، سواء أكانت كبيرة أم صغيرة. لم تكن تخشاها كثيراً، وكان باستطاعتها أن تجعلها تهرب من خلال التحديق بثبات في عيونها.

وبينما تدلل الفتاة الحيوانات، كان أبواها يدللانها. كانت الأم تجهز جلود الذئاب والدببة حتى تصبح بالغة النعومة وتبقي فروها عليها، لتصنع سجاجيد للأرض ومعاطف شتوية لأبنائها. وتستعمل جلود الأورخص للأغراض الأكثر خشونة، لكن من الخشف[1] والعرسة والأرنب والقاقم مما يحضره الأولاد، اعتادت أن تصنع ملابس ناعمة بما فيه الكفاية لتناسب جلد

(1) صغير الظبي (م).

Twitter: @ketab_n

الأطفال الناعم، وكان أهل الغابة يلفون أطفالهم الرضع في أثواب مصنوعة من هذه الجلود غير المدبوغة بعد معالجتها. وبعدما ترضع الأم وليدها، كانت تعلقه - متلفعاً ودافئاً في مهده - في غصن شجرة. وكان المهد الذي تهدهده الريح عبارة عن كيس من الفرو مصنوع من المواد نفسها.

وعادة ما كانت بندلكين تغطّ في النوم بمجرد أن تتناول فطورها. وحين تصحو مغردة، كانت السناجب تلعب من حولها. لقد تعلمت أن تراقب من دون وجل العنكبوت وهو ينسج بيته الحريري. وعندما كبرت صارت تسمي ذلك المخلوق العجيب القادر على صنع الحرير نول، قائلة - على سبيل المزاح - إنه حبيبها، إكراماً لذكرى أيام الطفولة.

كان من المسلي رؤية الأم الماهرة في استخدام الإبرة المصنوعة من العظام وهي تنسج الأثواب بخيطها الخشن المعمول من أمعاء الغزلان. وقد دأبت أم بندلكين على تفصيل الثياب على هذا النحو منذ طفولتها في الغابة. أما وقد كبرت ابنتها وصارت فتاة خلابة، بوجه حسن وصحة وافرة، فلم تكن الأم الطيبة المتفانية لتبخل بالمزيد من الجهد، فتصنع لها المعاطف الجلدية

Twitter: @ketab_n

الطرية المصنوعة من جلود الخشف والعرسة والدلق[1]، وتضيف لها زراكش بيضاء جليدية من فرو القاقم. كما تصنع القبعات والقفازات والعباءات وأطماق الأقدام بما يليق مع بقية الملابس، مضيفة الشراشيب الأنيقة هنا وهناك حتى بدت ابنتها كالأميرة. في الصيف، كان جلد الطيور وريشها يغطي جسدها بخفة بألوان كثيرة غنية، بينما تزين شعرها الأزهار.

أما في الشتاء، فقد كانت الفتاة تبدو، في رداء الغابة الأبيض، ولولا خداها الورديان وعيناها البراقتان، لكأنها ولدت من رحم الثلج أو كأنها ابنة إله الثلج الشمالي في أولروم[2]. ولأنها كانت جميلة إلى هذا الحد، فقد غير أبواها الاسم الذي أطلقاه عليها في طفولتها وأسمياها دري–فا، أي «بياض الثلج».

ومع أنه لم يكن هناك في جلدرلاند[3] كلها من يوازيها حسناً ولا حتى الأميرات كن يفقنها في جمال الوجه والصورة، لم تكن الأميرة سعيدة، رغم أن الكثير من المعجبين جاءوا طالبين يدها للزواج. جاء بعضهم بأفضل ما تجود به الغابة من فراء لإثبات مهارتهم في الصيد، فيما استعرض آخرون قوتهم أو رشاقة

(1) حيوان آخر من فصيلة ابن عرس مشهور بفروه (م).
(2) بلدة هولندية صغيرة في مقاطعة جرونيكن (م).
(3) مقاطعة في هولندا كانت فيما مضى مملكة مستقلة تحت اسم جلدرز (م).

Twitter: @ketab_n

أقدامهم. وتساومت حفنة ثالثة من الخطاب مع الكبوترات[1] من عفاريت المناجم، لإعطائهم خامات براقة أو جواهر غالية لكي يقدموها للآنسة بياض الثلج. وذهب آخرون بعيداً لإحضار العجائب والغرائب كالعنبر من شطآن أقاصي الشمال. أحدهم – وهو شاب وسيم كان قد ذهب إلى الجنوب وحكى لها عما رآه في المدن العظيمة هناك – أعطاها عقداً من اللالئ.

لكن كان كل هذا بلا جدوى. فقد كانوا جميعاً يرحلون خائبين، لأن الآنسة بياض الثلج كانت تمل منهم وتعيدهم إلى ديارهم محبطين.

أخيراً جاء خاطب غريب الهيئة اسمه «رأس النول»، يشبه العنكبوت ووعدها بسر أغلى من الفراء والذهب والجواهر والعقد؛ غير أن الأم حين رأت قبح ذلك المخلوق الذي جاء يخطب ابنتها، صرفته بكل قسوة.

وهكذا مرت الشهور والسنين، حتى خاف الأب أن يموت قبل أن يرى ابنته عروساً.

لكن ذات يوم، في أثناء غياب سكان البيت، ارتفع حفيف وريقات شجرة البلوط، رغم أنه لم يكن هناك ريح، وهو ما

(1) الكبوتر قزم اسود (م).

Twitter: @ketab_n

أدهش الآنسة بياض الثلج، فأصاخت السمع لترى ماذا يعني ذلك. وسرعان ما تمكنت من سماع هذه الكلمات: «عندما يأتي العنكبوت الذي سميته رأس النول ليخطب ودك، أصغي إليه. فهو أكثر مخلوقات الغابة جميعاً حكمة وهو يعرف المستقبل. وسيخبرك بسر. أنا سألاقي حتفي، أما ما سيعلمك إياه فسيحيا».

ثم توقفت أوراق البلوطة عن الحفيف وعاد كل شيء ساكناً صامتاً من جديد.

وبينما تتدبر الآنسة بياض الثلج معنى هذه الرسالة، هبط العنكبوت الحقيقي الذي كانت قد أسمته رأس النول. تدلى من أحد الأغصان العالية فوق خيط حريري وجلس على جذع إلى جوار الفتاة، إلا أنها لم تجفل أو تصرخ وتهرب، بل تحدثت إلى العنكبوت كصديق قديم: «حسناً يا من شاركتني ألعاب الطفولة، ماذا لديك لتقوله لي؟».

«لقد جئت لأعرض عليك حبي. لا ضرورة للزواج بي بعد، لكنك إذا سمحت لي فسأنسج شبكة بغرفتك وأقيم هناك ومع الوقت أكافئك. دعيني أكون دائماً أمام ناظريك ولن تندمي».

Twitter: @ketab_n

وما كادت الفتاة توافق حتى ثارت عاصفة فظيعة خلعت الشجرة من جذورها وبسطت أشجار الغابة عن آخرها. وفي لحظة تالية، صعد من الأرض بيت شديد الجمال يوحي بالنبل كأنه قصر. بالقرب من البيت كانت حديقة، وذات يوم وهي تتمشى فيها، نبتت في أرضها زهرة زرقاء كادت تكون تحت قدمها.

قال لها رأس النول: «اختاري أفضل غرفة لنفسك ثم أريني ركني. وبعد مئة يوم، إذا ما أحسنت معاملتي، فسوف أكشف لك سر تلك الزهرة الزرقاء».

اختارت الفتاة الغرفة المشمسة وأعطت رأس النول أفضل ركن بالقرب من الشباك والسقف. من فوره بدأ ينسج شبكة لامعة بيتاً له. عجبت من شغله البديع الذي لا يمكن أن يفوقه نساج من البشر، وتساءلت لم لا تستطيع هي أن تغزل الحرير من رأسها – مثل حبيبها الغريب – ولا حتى بأصابعها. إلا أن البلوطة كانت قد وعدتها بأن رأس النول سيكشف لها سراً، وقد تزايد فضولها لمعرفة ما تراه يكون. ولتخفّف من نفاد صبرها، راحت دري – فا تراقب رأس النول وهو مشغول بصناعة منزله، غازلاً الخيوط اللامعة بلا توقف. والتهت بمشاهدته لدرجة أن الليل داهمها قبل أن تنتبه أن غرفتها بلا أثاث. لم يكن هناك حتى فراش تنام عليه.

Twitter: @ketab_n

نظر إليها رأس النول بإمعان وتكلم بصوت عميق كصوت الرجل: «آه، أنا أعلم أنك تريدين فراشاً وأشياء لطيفة لغرفتك».

ولم تمر لحظة حتى كان الفرو الناعم يكسو أرض الغرفة، وسرعان ما صارت دري – فا تمتلك كل ما كان لها في الغابة وأكثر. عجبت إلى حد التيه حتى إنها نامت خلال دقائق.

ورأت فيما يرى النائم أنها ترتدي فستاناً أبيض جديداً من نوع لم يكن أهلها قد رأوه البتة. فبدلاً من أن يكون ذا نسيج مسمط مثل جلود الحيوان، امتلأ هذا القماش بآلاف الثقوب الصغيرة، ومع ذلك كان متماسكاً. كان خفيفاً كالشاش، كشبكة عنكبوت فضية على الحشيش الصيفي قبل شروق الشمس، حين يكون الحشيش مكللاً بالندى.

راحت الأيام المئة تمر مسرعة، وخلالها أصبح رأس النول والأميرة بياض الثلج صديقين حميمين. كان كل منهما يسكن عالماً مختلفاً. عالم داخل العالم. وكانت تنتظر السر الذي سيخبرها به وقد قررت بشجاعة ألا تكون نافدة الصبر وأن تدع رأس النول يبدأ بالكلام.

Twitter: @ketab_n

أتى الخريف، وذات يوم شعرت بالوحدة، فراحت تتمشى في الحديقة. كانت الريح باردة وأوراق الشجر تتساقط مغطية الأرض كسجادة صفراء، وفجأة سقطت وريقة في يدها وكأنما تحمل لها تحية رقيقة. غير أنها، وهي تنتظر، لم تبلغها أيّ رسالة من آلاف الأوراق تلك. ولم تكن قد بلغتها كلمة واحدة من أبويها وإخوتها. كانت الزهرة الزرقاء قد ذبلت منذ زمن طويل ولم يبق منها سوى سويقة النبات التي كانت ملتصقة بها سوداء وجامدة وخشنة. حدثت نفسها قائلة: «أمن شيء ما في تلك السويقة القبيحة؟ كيف سيكشف رأس النول عن سره؟»، شعرت بكآبة شديدة تسكن قلبها.

مرة أخرى عوت العاصفة وبدا أن كل رياح السماء أفلتت من عقالها. فتمايلت أشجار بلوط كثيرة على الرغم من قوتها وثباتها. وحجبت وريقات الشجر الضوء فلم تعد بياض الثلج قادرة على رؤية شيء. ثم حل هدوء عظيم. صفا بصرها فجأة ويا للعجب، رأت إلى جوارها شاباً أكثر وسامة من أي من إخوتها أو طالبي يدها ومن أي رجل رأته في حياتها. كان يرتدي ثياباً بيضاء فاخرة بدت مصنوعة من أعداد لامتناهية من الخيوط الرقيقة. وكان الشاب يحمل بيده السويقة السوداء لما كان زهرة زرقاء.

Twitter: @ketab_n

قال: «هذا أنا رأس النول، لقد انتهت الأيام المئة وانفك السحر المعمول لي وتحررت أخيراً. لقد جئتك، على سبيل الهدية، بهذه السويقة القبيحة التي تفتحت عليها الزهرة الزرقاء».

وبين دهشتها من تحول رأس النول من عنكبوت إلى شاب وسيم، وخيبة أملها من الهدية المعروضة عليها، عجزت بياض الثلج عن الكلام وبالكاد استطاعت أن تلتقط أنفاسها. أهذا كل شيء؟

قال رأس النول: «اكسريها لتري ما في داخلها».

واندهشت الفتاة لما شقت السويقة من الطرف إلى الطرف، فقد وجدت بداخلها العديد من الخيوط الحريرية الطويلة، التي تكاد نعومتها تضاهي شبكة العنكبوت. سحبت الخيوط وعيناها ترقصان بهجة.

«ازرعي البذور ودعي ملايين البراعم الزرقاء تتفتّح، ثم اجمعي السويقات وانسجي. هذه السويقة السوداء هي صولجان الثراء».

وبعد أن فصل رأس النول الخيوط الرقيقة خيطاً خيطاً، نسجها عباءة رائعة من القماش الأبيض بلون الثلج، لم تكن قد رأت مثلها عين في الغابة. إنه الكتان.

صفقت الآنسة جليد بكفيها فرحاً.

Twitter: @ketab_n

قال نول: «هذه لفستان عرسك، إذا قبلت الزاوج بي».

واحمر خدا بياض الثلج لكنها نظرت إليه وقالت عيناها: «أقبل».

قال نول: «مهلاً، سأصنع لك طرحة العرس».

ومرة أخرى صنعت أصابعه المعجزات وأنتج أمتاراً من ذلك القماش الرقيق ثم فرده في الهواء قبل أن يطرحه على رأسها. انسابت الطرحة على ظهرها وغطت وجهها المتورّد.

أصبحا زوجين سعيدين، وغادرا الغابة واستقرا في الأرض التي يفرش فيها زهر الكتان الأزرق سماء ثانية على الأرض. وسرعان ما أصبح الناس يقرأون أسماء مدن لم يكونوا يعرفونها. في زمن لم تكن فيه أعداد كبيرة من الناس السعداء، الفرحين بعملهم، مثل هذين الاثنين، كانت كورتراي وتورناي، إيبر وجنت وبروج[1] تشهد على ما صنعته الزهرة الزرقاء للبلاد؛ أهم من الذهب والجواهر، من مغانم الغابة والنجم، كانت هدية رأس النول للآنسة بياض الثلج هي صنع أرض البلجيك.

(1) مدن في بلجيكا وهولندا (م).

Twitter: @ketab_n

الخنزير البري ذو الشوارب الذهبية

منذ زمن طويل طويل، كان هناك مقاتلون شجعان وصيادون مهرة في هولندا، لكن أحداً من الرجال والنساء لم يحلم قطّ بأن الطعام يمكن الحصول عليه من باطن الأرض ولكن فقط من الدغل والأشجار، كالتوت والجوز والعسل. كانوا يظنون قشرة الأرض أكثر صلابة من أن تكسرها بذور النبات، ذلك رغم معرفتهم بالدقيق والخبز. واعتقدوا أن ما توفره الطبيعة في الغابة هو كل ما أتيح للإنسان من الطعام. وإضافة إلى ذلك، كانوا يجعلون نساءهم يقمن بالعمل كله، يطبخن الجوز ويخمرن العسل ليصنعن منه الميد، بينما هم يخرجون للصيد والقتال.

فأشفق الجان على أهل الشمال المقيمين في البرد، وحيث يهطل الكثير من المطر والثلج. فعقدوا مجلساً واتفقوا على أن الوقت حان لإرسال حيوان إلى الأرض، تكون له أنياب تمزق سطحها، فحينئذ يرى الناس ثروات الأرض ويعرفون

Twitter: @ketab_n

ما هي التربة. ويهنأون بالمزارع والحدائق، والحظائر والإصطبلات، والتبن والحبوب، والخيل والماشية، والقمح والشعير، والخنازير والبرسيم.

كان بعض الجان من ذوي السطوة – وهم فصيل معين – يسكنون أرض السعادة بعيداً بعيداً، وكانوا يسيطرون على كل ما في الماء والهواء. وكان أحدهم يدعى فرو، وقد أصبح رب ضوء شمس الصيف وحمامات مطره الدافئة التي تجعل كل شيء ينمو. وفي تلك المنطقة المضيئة سكن العفاريت البيض.

وكان من العادات اللطيفة لأرض الجان أنه، عندما ينمو أول سن لأحد أطفال الجان، على صديقات الأم أن يقدمن للصغير هدية لطيفة.

وهكذا ذهبت نيرثوس أم الرضيع فرو إلى كل الجان الآخرين حالما انتبهت لذلك الشيء الصغير ينبت من لثة الطفل، وأعلنت لهم الخبر السعيد بغبطة شديدة. كانت مناسبة مهمة وقد حاولت نيرثوس أن تخمن ماذا ستكون الهدية التي سيحصل عليها ولدها الصغير الرائع.

Twitter: @ketab_n

كان هناك جني كالعملاق في قوة دب قطبي، وافق على أن يحضر لفرو الصغير مخلوقاً يستطيع أن يضع أنفه أسفل سطح التربة ويقلب الأرض رأساً على عقب. وبهذه الطريقة يبين للناس ما تحتوي عليه الأرض أسفل التربة مباشرة من دون أن يضطروا للذهاب إلى المناجم والمغاور.

ذات يوم سمع هذا الجني العملاق قزمين بدينين يتكلمان في المنطقة الواقعة تحت الأرض. كان كل منهما يباهي بقدرته على التغلب على الآخر في تشكيل المعدن بمنفاخ النار، فقد كانا كلاهما حدادين. كان أحدهما ملك الأقزام، وقد راهن الآخر على أن يتفوق عليه. ثم بدأ المباراة فيما راح عفريت ثالث ينفخ المنفاخ. رمى ملك الأقزام بعض الذهب في النيران ليذيبه، لكنه - خوفاً من أن يخسر الرهان - ذهب لاستدعاء جان آخرين لمساعدته. وقال لقزم المنفاخ ألا يكف عن نفخ الهواء في النار مهما حدث له.

لذلك حين طار الجني العملاق - على هيئة نعرة[1] - وعض قزم المنفاخ في يده، لم يكف ذلك الأخير عن العمل من جراء الألم بل استمر في النفخ حتى ارتفع أزيز النار وجعل يتردد في أرجاء

(1) ذبابة الماشية (م).

Twitter: @ketab_n

المغارة. حينئذ ذاب الذهب كله وصار بالإمكان تحويله. وحالما عاد ملك الأقزام، أخذ النافخ ملقاطاً ضخماً مده إلى النار ليخرج خنزيراً برياً له شوارب من ذهب.

كان لهذا الخنزير الذهبي المولود من النار القدرة على الحركة في الهواء بسرعة البرق. وقد سُمي جولن الذهبي، وأهدي لفرو. وعندما كبر الجني صار يستعمل ذلك المخلوق الرائع بمثابة جواده المطهم. احتفل كل الجان الطيبين والعفاريت، لأنه صار هناك ما يساعد أهل الأرض على تحقيق إنجازات عظيمة.

لكن الأروع من ذلك أن هذا المخلوق المولود من النار صار أباً لكل الحيوانات ذوات الأنياب التي تجوب الغابة. إن الناب عبارة عن سن ضخم ينمو طرفه المروس الحاد إلى خارج الفم وهناك يبقى حتى والفم مغلق.

كان جولن، في أوقات فراغه وحينما لم يكن فرو يركبه لتأدية مهماته فوق العالم، يعلم أبناءه - خنازير الغابة البرية - كيف يقلّبون الأرض ويجعلونها طرية بما فيه الكفاية لينبت الزرع منها. وحينئذ كان فرو، سيده، يبعث بأشعة الشمس والمياه الدافئة لتجعل الأرض المحروثة مثمرة.

Twitter: @ketab_n

ولكي تقوم بهذا العمل، أُعطيت الخنازين البرية نابين طويلين مدببين كالإبر وحادين كالسكاكين. وبنطحة واحدة من رأسه، كان باستطاعة أحد هذه الخنازير أن يخترق جسم كلب أو ذئب أو ثور أو دب، كما يستطيع أن يحفر التربة كشفرتي محراث.

كان لذوي الأنياب أبناء عمومة: الفيل على الأرض؛ والفظ إضافة إلى الحريش (أو سمكة يونس) في البحار[1]. إلا أن أحداً من هذه المخلوقات لم يكن باستطاعته حراثة الأرض. وحده الخنزير البري الذي تجمع أنيابه بين الطول والحدة، وتتقوس أطرافها يمكنه اختراق التربة الصلبة وتقليبها، وهذا ما جعل التربة صالحة لنمو النباتات الناعمة، وحتى الزهر البري صار يبرز من جوفها.

وكان هذا كله، عندما انتبه له بنو البشر للمرة الأولى، رائعاً جداً. نادى الأطفال بعضهم بعض ليأتوا ويروا المنظر الغريب: كانت الأخاديد الضيقة التي تشقها أولاً الخنازير البرية بأنيابها تتوسّع عبر الحفر بخطومها. ورحبت الطيور بهذه الأخاديد، فأخذت تقفز بينها وتتغذى على الديدان. ولأن الطيور افترضت أن هذه الأخاديد قد حفرت خصيصاً من أجلها فقد صادقت

(1) الفظ حيوان برماني بنابين والحريش حوت صغير لذكره ناب واحد مدبب (م).

Twitter: @ketab_n

الخنازير البرية وصارت تحط بالقرب منها أو تطير وتركب على ظهورها وهي تمشي.

أما الرجال الآباء فقد انتبهوا للنعومة الشديدة في الأرض المحروثة وكتل التربة التي أخرجتها أنياب الخنازير البرية، مما مكن النساء والبنات من تقسيمها بعصيهن. وكانت البذور التي تسقطها الطيور الآتية من أراض بعيدة كل ربيع تطرح أنواعاً جديدة من النباتات لوحظ أن لها سيقاناً. وفي رؤوس هذه النباتات الجديدة أو آذانها كانت هناك مئات البذور التي تذوقها الأطفال فأدركوا بابتهاج شديد أنها تصلح للأكل. صاروا يتلعونها صحيحة ويشوونها على النار، أو يدقونها بالحجارة. وكانوا يخبزون البذور أو يصنعون منها عصيدة يأكلونها بالعسل.

لأول مرة أصبح عند الناس في العالم الهولندي خبز. وعندما أضافوا العسل الذي يأتي به النحل صار عندهم فطير حلو وميد. لقد احتفظوا بالبذور من الصيف للصيف، والربيع التالي زرعوها في الأخاديد الضحلة المصنوعة بأنياب الحيوانات. وهكذا اختلطت – في الهولندية والإنجليزية – لفظتا خنزير (بور) والأخدود (رو) وصار هناك كلمة «فارو»[1].

(1) Furrow: الثلم أو الأخدود (م).

Twitter: @ketab_n

كانت النساء أول من أتقن صنع الخبز. وقد استخدمن البداية الأحجار الساخنة يضعن عليها كتلة من العصيدة أو الدقيق والماء أو أي خلطة بالحليب أو البيض. وبعدما عرفن الخميرة التي تنفخ الدقيق أو تنفشه بالغازات والفقاقيع، صنعن خبزاً حقيقياً وفطائر صرن يخبزنها في أفران صنعها الرجال. وعندما يضع أحدهم شريحة لحم بين شطرتي خبز، صاروا يسمونها برودي (ومعناها الخبز الصغير) وهي الكلمة الهولندية للسندويتش. مع الوقت، بدلاً من نوع واحد أو اثنين من الخبز أو الفطير، صار عندهم أكثر من عشرين صنف إضافة إلى فطائر الصينية وكعك الوافل[1].

وعندما رأى حكماء الحيّ النساء يصنعن مثل هذه الأشياء الرائعة، بدأوا يقربون رؤوسهم من بعضها بعض ويقولون الواحد للآخر: «إننا على أتم استعداد للاعتراف بأن الجان والعفاريت البيض وحتى الكبوترات أو العفاريت السود أذكى منا. ونساؤنا كذلك بالتأكيد رائعات. ولكن لا يصح قطّ أن ندع الخنازير البرية تظن أنها أذكى منا. صحيح أنها علمتنا كيف نحفر الأخاديد، والطيور هي التي جاءتنا بالحبوب التي يُصنع منها الدقيق. إلا أننا نحن الأعظم، لأننا نستطيع اصطياد الخنازير البرية وقتلها برماحنا. ورغم أنها تستطيع أن تقطع التربة وتحرث

(1) الوافل: كعكة محمصة حلوة تعد من الدقيق والحليب والبيض (م).

Twitter: @ketab_n

بأنيابها وخطومها، فليس بمقدورها أن تصنع الفطائر مثلما بمقدور نسائنا. فدعونا نر إن كان بإمكاننا أن نهزم الخنازير البرية والطيور معاً، ونتفوق – حتى – على نسائنا. فإننا نكون أقرب إلى قوة الجان إذا ما اخترعنا شيئاً يفوق ما يصنعونه».

وهكذا فكروا وخططوا. وشيئاً فشيئاً، صنعوا المحراث. في البداية، بالعصي في أيديهم، خدش الرجال سطح الأرض في خطوط ليست عميقة. ثم جاءوا بألواح من الحديد ألصقوها فوق تلك العصي بالمسامير. في الخطوة التالية، ركبوا ذلك الخشب المغطى بالحديد في هيكل يمكن جره إلى الأمام ومع الوقت أضافوا مقابض. كان الرجال والنساء، مربوطين إلى بعضهم بعض، يجرون المحراث. ستمر عصور، في الحقيقة، قبل أن يمتلكوا ثيراناً تقوم عنهم بهذا العمل الثقيل. أخيراً ظهر المحراث الكامل. كان له سكين من الأمام لقطع كتل التربة، وشفرة محراث عمودية تليها عارضة مثبتة في قالب بمقابض وبعد فترة عجل يبقيه مستوياً. بعد ذلك جهزوا الخيول لجره.

لم يكن الجني «فرو» يملك الخنزير ذا الشوارب الذهبية فحسب ولكنه كان يملك أيضاً سليبنر، الحصان الذي يشبه البرق، الذي يمكنه أن يسير عبر الماء والنار بسرعة الضوء. كما امتلك فرو

Twitter: @ketab_n

السفينة السحرية التي يمكن أن تبحر على الأرض كما في البحر. كانت من المرونة بحيث يمكن أن تتمدد لتحمل فيلقاً من المقاتلين إلى الحرب فيما وراء أعالي البحار، أو تنطبق كمنديل سيدة. بهذه المركبة الطائرة، كان فرو قادراً أن يتجول كغيمة وكذلك أن يغير هيئته مثلما يفعل الغيم. وكان قادراً على الظهور والاختفاء كما يحلو له في هذا المكان أو ذاك.

مع الوقت، اختفت الخنازير البرية من جراء كثرة اصطيادها. إلا أن اسمها وشهرتها بقيتا في ذاكرة الناس. فقد اتخذ الفرسان الشجعان من رأس الخنزير البري شارة لدروعهم وشعاراً لنبالتهم. وعندما قلل اتباع أمير السلام[1] من الحروب، هُجرت المعابد المبنية لفرو، إلا أن الناس ظلوا يحسبون الأيام والشهور ويقيمون الاحتفالات في مواعيدها. فقط تحول عيد الليل الذي يعقد في أطول ليالي العام، في ديسمبر، إلى عيد الميلاد المجيد.

ومع ذلك، بقيت ذكرى من علّم الإنسان الحرث، فقد ذُكر الخنزير البري كمانح ليس فقط للحم المغذي ولكن أيضاً للأفكار التي تفيد العقول.

(1) إشارة إلى السيد المسيح (م).

Twitter: @ketab_n

مخبوزاً في الفرن شهياً، مقدماً في طبق يفوح بروائحه الخاصة اللذيذة، مزيناً بأعواد إكليل الجبل، أصبح رأس الخنزير البري يتوج مائدة العشاء الذي تصاحبه ترانيم العيد.

Twitter: @ketab_n

ملك الثلج وحفيدته الفاتنة

في العصور القديمة، كانت كل أراضي أوروبا الشمالية قطعة واحدة، لأن البحار لم تكن قد فصلتها بعد عن بعضها بعض. في ذلك الوقت اعتقد أجدادنا أن الجان آلهة، فشيدوا المعابد إكراماً لها. وفي ذلك الوقت، حيث توجد الآن البلدة الصغيرة التي يقال لها أولروم في فريسلاند، كان بيت روح الجليد أولر. وهذا ما تعنيه كلمة أولروم بالهولندية: بيت الجني الصالح أولر.

كان أولر راعي الأولاد والبنات، وكانوا يحبونه، لأنه اخترع الزلاجة والمزلجة ومركبة الجليد. كان مسؤولاً عن كل ما يخص الشتاء وكان يستمتع بالبرد. كما يبتهج بالصيد. مرتدياً معطفه الفرو الثقيل، لم يكن هناك ما يمتعه أكثر من التجوال فوق التلال وفي الغابات بحثاً عن الذئب والدب والغزال والأورخص. وكان قوسه وسهمه مخيفين، لأنهما كبيران جداً وهو لا يخطئ التصويب. ولأنه راعي الرماية، فدائماً التمس الصيادون بركته. وكان مما يقدس تيمناً به شجرة الطقسوس[1]، لأن أفضل الأقواس

(1) شجرة دائمة الخضرة من الفصيلة الصنوبرية (م).

Twitter: @ketab_n

يصنع من خشبها، فلم يكن أحد يقطع هذه الشجرة من دون أن يثير غضب يغضب أولر.

لم يعرف أحد من هو أبو أولر. وإن كان هو نفسه يعرف، فهو لم يعنى بإخبار أحد. لم يمنح بركات كثيرة لبني البشر، غير أن آلاف الناس كانوا يقصدون أولروم كل عام لطلب عونه وسؤاله أن يرسل جليداً وفيراً من السماء يغطي الأرض. فهذا يعني محصولاً وافراً في العام التالي. ذلك أنه حين تغطي الأرض طبقة سميكة من الجليد الأبيض فإنها تمنع عمالقة الصقيع من أن يعضوا الأرض بما يؤدي إلى فسادها، فبسبب الجليد الشتوي العميق، كانت التربة تبقى ناعمة في الصيف التالي، الأمر الذي يسهل على البذور أن تنبت ويضمن وفرة من الطعام.

كان أولر، حين يمشي على الجليد في جولات الصيد، ينتعل حذاء الجليد. ولأن فردة ذلك الحذاء تشبه درع المحارب، فكثيراً ما كان يسمى أولر إله الدرع. وكان المتبارزون بالسيف أو الرمح – على وجه الخصوص – يدعونه إلى الشدّ من إزرهم، ومثل هذه المبارزات كانت كثيرة الحدوث في الأيام الخوالي. كما اعتاد أن يذكر اسم أولر الجنود والصيادون عندما يحتاجون إلى الشجاعة أو الخوض في مهمات خطرة.

Twitter: @ketab_n

حين أراد أولر زوجة، خطب ود سكادي، فهي مثله صيادة وتحب ما يحب، وبالتالي لم يتشاجرا يوماً. كانت بالغة القوة ومولعة بالرياضة ومطاردة الحيوانات البرية. وكانت ترتدي تنورة قصيرة تسمح لها التنقل بحرية وهي تجوب التلال والوديان بسرعة باهرة. وكانت حركتها سريعة لدرجة أن الناس شبهوها بالشلال البارد الذي يهبط من قمة الجبل العالية وهو يرغي ويزبد فوق الصخور حتى يبلغ السهل مندفعاً. وقد أطلق الناس الاسم نفسه على تلك الجنية وعلى ماء الشلال، لأنهما متشابهان إلى هذا الحد.

وكانت سكادي فاتنة للنظر، فكان بديهياً أن يقع في غرامها الكثير من الآلهة والجان والرجال. وقد قيل – حتى – إنه كان لها بضعة أزواج قبل أن تتزوج من أولر. فعندما تنظر إلى صورتها، سترى كم أنها جميلة كالشتاء النير، حين يوشح الصقيع الأشجار باللون الأبيض ويضرج خدود البنات باللون الوردي. كانت ترتدي درعاً من الفولاذ اللمّاع، وتعتمر خوذة فضية، وتلبس أسفل تنورتها البيضاء القصيرة جوربين أبيضين من الفرو. وكان حذاؤها أيضاً بلون الشتاء. وإلى جانب رمحها البراق، كان لديها قوس وسهام حادة تحملها في جعبة فضية على كتفها. وقد بدا

Twitter: @ketab_n

شكلها - وقد اجتمعت فيها هذه الأشياء- كأنه الشتاء وقد دبت فيه الحياة. كما عشقت حياة الجبل، وسماع الرعد في الشلالات، وصخب انهيار كتل الثلج الضخمة وعويل الرياح في غابات الصنوبر. حتى نباح الذئاب كان موسيقى في أذنيها. لم تكن تخاف شيئاً.

ويتوقع المرء - من أب وأم كهذين - أبناء رائعين بطبيعة الحال. اتضح أن أولر وسكادي لم ينجبا سوى البنات اللواتي أسمياهنّ بأسماء تعني: نهر الجليد، برد، ثلج، رياح الثلج، دوامة الصقيع، وغبار الثلج. وكانت الكبرى (نهر الجليد) هي الأقوى والأضخم بينما الأخريات أطرى عوداً وأكثر تأثراً بالشمس والريح. كن كلهن يشبهن بعضهن بعض، حتى أسماهن الناس الشقيقات البيضاوات.

ومع ذلك، حزن جميعاً على الكثير من العظمة والقوة حتى ظنهم الكثيرون من العمالقة. ولم يكن ممكناً للرجال ترويضهن، فقد كن يصنعن ما يحلو لهن. ولم يستطع أحد أن يكبح أفعالهن أو يدفعهن إلى الابتعاد إلا وودن، إله الشمس. لكنه كان يترك حكم العالم ويذهب بعيداً في الشتاء، وخلال هذه الشهور السبعة الباردة، كان أولر يجلس على عرش وودن ويفصل في أمور العالم.

Twitter: @ketab_n

وحين يجيء الصيف، يصحب زوجته إلى القطب الشمالي أو إلى بيت على قمة جبال الألب حيث يمكنهما أن يصطادا ويتجولا بأحذيتهما الجليدية. وإلى هذه الأماكن الباردة التي تستمع بها العائلة جميعاً، كانا يصطحبان بناتهما أيضاً وكان الكل سعيداً هناك.

ومضى كل شيء في عائلة أولر على خير ما يرام حتى كبرت بناته، فطالما كن صغيرات، كان يكفيهن التمتع بلعبهن اليومي. لكن عندما كبرن وبدأت رؤوسهن تنشغل بالتفكير في العمالقة الشبان الذين يزورونهن، بدأت مشكلات العائلة.

كان هناك جني عملاق شاب يدعى فور، وكثيراً ما كان يأتي لزيارة بنات أولر الستة جميعاً، من أصغرهن إلى أكبرهن. غير أن أحداً لم يستطع أن يعرف من منهن كان يحب ولا أي منهن يفضل على الأخريات، ولا حتى البنات أنفسهن. ولم تكن شخصيته ولا طباعه معروفة، لأنه كان كثير التنكر وكان يظهر بهيئات مختلفة في العديد من الأماكن. واعتقد الناس أنه قد ارتكب الكثير من الشقاوات ورجحوا أنه سيرتكب شقاوات أكثر، لأنه يحب التدمير. ذلك رغم أنه كثيراً ما كان يساعد العفاريت السود على فعل أشياء عظيمة،

Twitter: @ketab_n

وبهذا أظهر أنه مفيد، والحقيقة أنه كان جني النار. ظل يخطب ود الأخوات الست لمدة طويلة بعدما حل عيد الأول من مايو (للاحتفال بتتويج الملكة، وليس العمال!) وطالت زياراته حتى أصبح الطقس حاراً بما يكفي لإذابة نصف دزينة الأخوات وتحويلهن إلى ماء. فأصبحن واحدة.

الأمر الذي أغضب أولر من أن فور تأخر إلى هذا الحد في عرض الزواج على إحداهن، ومن أنهن فقدن شكلهن، لدرجة إجبار فور على الزواج منهن جميعاً في وقت واحد وقد اتخذن اسم ريجن.

وحين ولد ابن لريجن وفور، كان في جسده وطبعه تماماً ما توقع الناس أن يكون في ابن هذا الأب وهذه الأم. سموه بالهولندي ستوم. كبر بسرعة وسرعان ما أثبت أنه يتمتع بقوة أبويه، غير أن حاله كانت أسوأ بكثير عندما يحبس في الداخل مما تكون عندما ينطلق في الهواء. وكان ستوم يحب ممارسة شتى أنواع الحيل، ففي المطبخ يجعل الغطاء الحديدي للغلاية يتخبط مرتفعاً منخفضاً فيصدر صوتاً مجلجلاً. وحين يكون محبوساً في وعاء موضوع على النار، من الحديد أو الفخار، يفجر ذلك الوعاء إرباً حتى يخرج منه. كثيراً ما كان يظن

Twitter: @ketab_n

نفسه مطرباً عظيماً فيصدر صوتاً لطيفاً، حين تدعه أمه يخرج من فم الوعاء. لكنه ما كان يطيع أبويه البتة. وحين يحاولان حبسه داخل أي شيء، فإنه يهرب محدثاً جلبة فظيعة. ولم يكن باستطاعة أي شيء أن يحتويه طويلاً حتى ينفجر.

أحياناً كان ستوم يذهب إلى باطن الأرض ويفتح غدير مياه يقابل به النيران العميقة المستعرة من تحتنا طوال الوقت، وحينئذ يأتي زلزال بشع يريد أن يخرج وقشرة الأرض لا تدعه وتحاول أن تبقيه تحتها. أحياناً ما ينسل ستوم إلى فوهة بركان، وحينئذ - حتى لا يختنق الجبل - يضطر إلى أن يعطس قاذفاً ستوم، مما يؤدي دائماً إلى فوضى فظيعة يسميها الناس الحمم. في أحيان أخرى، كان ستوم يقيم في الفوهة كضيف ويخرج بهدوء، من حين إلى آخر، على شكل فيض ونفخات.

وحتى حين يكون الصقيع متواجداً فيجمد مواسير البيت أو يحيل ماء الأواني والحلل والغلايات والزجاجات إلى جليد صلب، لا يني ستوم يسيء التصرف. لو كانت الغلاية موضوعة على الموقد أو بالقرب من النار، فذاب الجليد من أسفل بأسرع مما يجب، كان ستوم يفجر الغلاية كلها. وعلى

Twitter: @ketab_n

هذا النحو كثيراً ما كان يعرض حياة الناس للخطر أو يجعلهم يفقدون ممتلكاتهم.

لم يبد أن أحداً قادراً على التعامل مع ذلك الجني الشقي. فلم يكن على الأرض من يستطيع أن يصنع معه شيئاً. ومع ذلك، طوال هذا الوقت – حتى وهو يستمتع بحيله وعبثه الدائم – كان يناشد بني البشر أن يستخدموه كما يجب ويطوقوه إلى العجل الدائر، فهو مستعد أن يجر أو يقود، أن يرفع ويخفض، يطحن وينفخ كما تستوجب الحاجة.

طالما لا يحسن الناس معاملته ويسمحون له بالانطلاق في الهواء بعد أن يؤدي مهامه، فسوف ينفجر ستوم ويفجر ويدمر. كان يمكن للناس أن يجعلوه يغني أو يهسهس، يصرخ أو يصفر، ويصدر كل أنواع الأصوات. لكن إذا ما لم تكن الأربطة التي تثبته في مكانه قوية بما فيه الكفاية، إذا ارتفعت حرارة فور عن درجة معينة أو لم تعطه أمه ما يكفي ليشربه من الماء، وإذا احمرت الأنابيب الحديدية من شدة الحرارة، فإنه يفقد أعصابه وينفجر. وهو لا يحترم الغلايات السيئة أو المهملة، ولا مكافحي الحرائق والمهندسين الكسالى والمستهترين.

ومع ذلك، إذا ما سُخر كما يجب وأحسنت معاملته، إذا ما

Twitter: @ketab_n

أطعم من الطعام الذي تعطيه له أمه واستمع إلى إرشادات أبيه، فإن ستوم يكون أعظم من أي جني أو عملاق في الأبد، فيمكنه أن يقود سفينة أو قطاراً أو غواصة أو طائرة بسرعة خنزير فرو أو جواده أو سفينته. والجميع اليوم سعداء بأن ستوم خادم وصديق طيب في طول العالم وعرضه[1].

Twitter: @ketab_n

(1) كلمة فور بالهولندية تعني النار، وريجن المطر. أما ستوم فتعني البخار (م).

عجائب العفاريت

الإيلفات هم العفاريت البيض الصغار الذين يعيشون بين السماء والأرض. ليسوا في السحاب، ولا كالأقزام في عمق الكهوف والمناجم. بل إنهم مشرقون وحسان، يسكنون الهواء وعالم الضوء. ولا يحتملون في العادة سخونة الشمس المباشرة، فلا يظهرون كثيراً في النهار إلا قبيل الغروب. وهم يعشقون ضوء القمر الفضي. وفي الماضي ظن الكثير من الناس أنهم رأوا المخلوقات الجميلة المليئة بالبهجة والمرح، وهي ترقص متشابكة الأيدي في دائرة.

في تلك الأيام التي عفا عليها الزمن، كان هناك عدد أكبر من الآن ممن كانوا واثقين أنهم سعدوا برؤية العفاريت مرات كثيرة، وتبيّن أسماء بعض الأماكن في هولندا أين كان يسكن هذا النوع من الجان. وقد كانت هذه المخلوقات الصغيرة التي تبدو رفيعة كالشاش، بالغة النشاط والشقاوة، ذلك مع أنها كثيراً ما كانت تساعد الناس الأمناء المجتهدين في أعمالهم. لكن كان

Twitter: @ketab_n

جلّ همّها منصباً على المرح، وكانت مولعة بإزعاج الغاضبين وإرضاء المرحين الأصحاء، كما كانت تبغض البخلاء، وتعشق الطيبين الكرماء. وكان عادة ما يتنزه هؤلاء القوم الصغار في المروج بين الأزهار والفراشات. وفي الليالي المنيرة يلعبون وسط أشعة القمر.

وكانت تأتي أوقات معينة ينشغل فيها العفاريت عن البشر الذين ينشغلون بأمرهم، وعادة ما كانت حيلهم - حينئذ - تختص بالإصطبلات أو بالحقل وسط الأبقار. أحياناً، في المطبخ أو في الملبنة[1]، بين الأطباق أو أواني الحليب، يتسببون في فوضى فظيعة تضطر الخادمات لتنظيفها. فيتقلبون فوق مماخض الزبد، ويهزون أباريق الحليب، ويلعبون كرة السلة بقطع الجبن المستديرة. وفي غرفة النوم يجعلون الأشياء تبدو كما لو أن الخنازير داست فيها.

وحين يجد أحد المزارعين عرف حصانه مربوطاً في عقد أو بقرتين عقد ذيلهما الواحد في الآخر، فإنه يقول من فوره: «هذا شغل العفاريت». وإذا بدا الاضطراب أو الفوضى على الأفراس، يعرف صاحبهن أن العفاريت كانوا يركبونهن طوال

(1) حيث تصنع منتجات الألبان (م).

Twitter: @ketab_n

الليل. وإذا مرضت بقرة أو وقعت على الحشيش، كان يُعتقد أن العفاريت صوبوا سهماً في جسدها. وكان مفاد الكثير من الاستجوابات التي تقام في أمر عجل نافق أو أم عجل نافقة تخلص إلى أنه نفق من «ضربة عفريت». وكان الناس على يقين من ذلك لدرجة أنهم حتى عندما يلقطون من الأرض رأس سهم حجري من التي استخدمها أجدادنا القدماء في الصيد، أيام كانوا أهل كهوف، كانوا يسمون ذلك الشيء «سهم عفريت» أو «مسمار عفريت».

وبالقرب من قرية تسمى إيلفبرج أو تل العفاريت، لأنها تغص بهؤلاء الأشخاص الصغار، عاش عفريت موغل في العمر اسمه ستيف (وهو يعني، بالهولندية والإنجليزية سواء: الصلب) لأنه رغم تقدم سنه كان يقف منتصباً كرمح. وقد اشتهر بمقالبه أكثر، حتى، من العفاريت اليافعين. فأحياناً كان يكنى هانيكم، بمعنى: عرف الديك. وقد اكتسب هذا الاسم لأنه مولع بتقليد الديكة وهي تصيح في الصباح الباكر. وبطاقيته الحمراء، كان بالفعل يشبه ديكاً حتى إنه أحياناً ما كان يخدع الدجاجات حين تسمعه يصيح. ما كان ستيف الهرم يحب شيئاً أكثر من الذهاب إلى بيت يعقد فيه حفل بالداخل عندما تترك الأحذية

Twitter: @ketab_n

الخشبية لعشرين أو ثلاثين رجلاً وامرأة، ولداً وبنتاً، عند الباب بالخارج. إنه مشهد عجيب على كل حال، خارج كنيسة قرية أو حيث يتجمع الناس في حفل بأحد البيوت، أن يرى كل هذه الأخفاف من مختلف المقاسات ويتساءل المرء كيف يتعرف كل واحد من أصحاب الأحذية على حذائه، إلا أنهم يعرفونها فعلاً. فلكل زوج مكانه، إلا أن ستيف الهرم يأتي فيخلط بعضها ببعض ويتركها في كومة. وعندما يخرج الناس استعداداً للعودة إلى بيوتهم، يعانون كثيراً في إيجاد أحذيتهم. وكثيراً ما يعنفون بعضهم بعض بسبب هذه الشقاوة أو ينحون باللائمة على ولد بريء. ولم يكن بعضهم يكتشف قبل اليوم التالي أن في إحدى قدميه فردة حذائه وفي الأخرى فردة حذاء جاره. وعادة ما يستغرق أمر ترتيب الأخفاف وتبادلها أسبوعاً كاملاً، حتى تستقر الأقدام الصحيحة في الأحذية الصحيحة. وبهذه الطريقة – وقد كانت حيلة خاصة به – كان العفريت الشقي ستيف يفلح في إفساد مزاج الكثير من الناس.

بالإضافة إلى عفاريت المروج، كانت هناك أنواع أخرى من العفاريت في أرض إيلفين، بعضها يعيش في الغابات وبعضها في كثبان الرمال، لكن ستيف الهرم كان يصادق هؤلاء الذين يسمون

Twitter: @ketab_n

ستالكارات أو عفاريت الحظائر ممن يعيشون في الإصطبلات وبين الأبقار. وكانت عذارى الطحلب اللائي بمقدورهن أن يصنعن أي شيء بأوراق الشجر حتى تحويلها إلى نقود يساعدن ستيف أيضاً، فهن يحببن الشقاوة. كن يعاكسن البشر، ولم يكن يستمتعن بشيء أكثر من تضليل هؤلاء الأغبياء الذين يفسدون أمخاخهم بالإفراط في الخمر.

كانت حيلة ستيف الأشهر تستهدف البخلاء. وكانت عبارة عن الآتي: حين يسمع عن أي شيخ يريد أن يوفر ثمن الشمع، كان يجعل أحد العفاريت السود يقود ذلك الشيخ إلى المستنقع حيث تخرج العفاريت للرقص في الليالي المظلمة. وعلى أمل أن يقبض على تلك الأضواء ليستخدمها بدائل من الشمع، كان ينتهي ذلك البخيل وسط مستنقع مبللاً عن آخره بالمياه وبارداً حتى النخاع. وحينئذ ينفجر العفاريت بالضحك.

لكن ستيف استمتع أكثر ما استمتع مع بخيل آخر كان من عادته أن يعنف الأطفال إذا ما وجدهم ينفقون قرشاً واحداً. لو رأى فتاة تشتري الزهور أو صبياً يدفع عملة نحاسية مقابل كعكة وافل، يوبّخه بقسوة قائلاً له إنه يهدر المال. ذات يوم كان هذا البخيل يسير على الطريق المرصوف بالطوب الخارج

Twitter: @ketab_n

من القرية حين قابله ستيف فعرض عليه أن يدفع له ألف جيلدر (من العملة الفضية) مقابل أربعة زهرات توليب مخططة مما ينمو في حديقته. وظاناً أن القروش من الفضة الحقيقية، تلقى البخيل المال بحماس وحفظه في خزينته الحديدية. لكنه في الليلة التالية حين ذهب - كما يفعل ثلاث مرات في الأسبوع - ليعد نقوده ويتحسسها ويمسحها ويدعكها ويتأملها بفرح وإعجاب، لم يجد مما أعطاه ستيف سوى أوراق شجر على شكل دوائر تفتت بين أصابعه حال لمسها. وقهقهت عذارى الطحلب محدثة جلبة حين جن جنون الشيخ البخيل من جراء ذلك.

ولكن لا تدعوا أحداً يظن أن العفاريت، لمجرد أنها أذكى من البشر الأغبياء، كانوا دائماً أشقياء - لا، لا. إن نصيبهم من الذكاء حقاً أكبر بكثير من نصيب الراشدين البلداء والأولاد الكسالى والبنات المهملات، لكنهم كانوا يعملون أيضاً خيراً كثيراً. فقد كانوا يخيطون الأحذية عن الإسكافيين العجائز حين يقعدهم المرض، ويصنعون الملابس للصغار حين تكون أمهاتهم متعبات. وفي وجودهم كان الزبد يظهر بسرعة أكبر في المخضة.

Twitter: @ketab_n

حين تفتحت زهرة الكتان الزرقاء في هولندا أثناء الربيع بدت الأرض كالسماء. وحينئذ وجد ستيف فرصته لكي يعمل عملاً صالحاً. فقد اعتبر الناس حتى خيش الكتان نعمة كبيرة إذ وفر عليهم صيد الذئاب والغزلان في الغابة للحصول على ملابس. وتدريجياً تعلموا أن يصنعوا قماشاً أنعم وأجود، سواء أكان للملابس أو لأشرعة السفن. فكانوا يفردون القماش على الحشيش حتى تبيضه الشمس جيداً ويصير بلون سحب الصيف المبحرة في السماء الزرقاء. وأعجب العالم كله بذلك المنتج وسرعان ما أصبحت كلمة هولندا لا تعني بلداً بقدر ما تعني ذلك القماش الرقيق، الأبيض كالجليد لدرجة أنه يصلح رداء للملكة. صار العالم يريد المزيد والمزيد منه، وأصبح نساجو الكتان الهولنديون أغنياء. غير أن العالم ظل ينتظر المزيد.

ذات ليلة صيفية يضيئها القمر، جاءت سيدات العفاريت - وهن مخلوقات جميلات - يلبسن الشاش والشرائط بأجنحة تعينهم على الطيران ويمشين بأقدام لا صوت لخطواتها، جئن إلى المروج ليقمن رقصات الجان الخاصة بهن. لكنهن حين رأين، مكان الحشيش الأخضر، أرضاً بيضاء (بقماش الكتان) رحن يتساءلن: أنحن في الشتاء؟

Twitter: @ketab_n

بالتأكيد لا، فالهواء دافئ ولا أحد يرتعش أو يشعر بالبرد. لكن هناك فدادين كاملة بيضاء كالجليد، والحشيش بما فيه من أزهار وأطواق لرقص الجنيات كله مستتر.

واكتشفن أن المروج تحولت إلى أراضي تبييض، فصارت الأبقار مضطرة إلى البحث عن طعامها في مكان آخر. لكنهن سرعان ما تجاوزن دهشتهن، ذلك أن العفاريت سريعو الملاحظة. لكن بما أن المزارعين باغتوهن على هذا النحو، راحت الجنيات هؤلاء يتساءلن إن كان البشر أشد ذكاء من العفاريت. فلم يكن فيهم من يشك بأن الرجال والنساء دون العفاريت ذكاء.

وهكذا، في اللحظة نفسها، بدأت حرب العقول.

قالت ملكة العفاريت، التي تقود الجماعة: «لقد أفسدوا محل رقصنا باختراعهم الجديد، فعلينا أن نجد محلاً آخر».

«إنهم شديدو الفخر بكتانهم، هؤلاء البشر. لكن لو لم يعلمهم العنكبوت كيف ينسجون، فماذا كانوا سيفعلون؟ حتى الخنزير البري يستطيع أن يعلم البشر. فلنرهم أننا نستطيع فعل المزيد. سوف أطلب من ستيف العجوز أن يرتدي طاقية التفكير، وسوف يضيف شيئاً جديداً يجعلهم أكثر فخراً مما هم الآن».

Twitter: @ketab_n

«لكن سيكون مجد هذا الشيء لنا»، هكذا صحن في صوت واحد. ثم كففن عن الحديث وبدأن في رقصاتهن، طافيات في الهواء، حتى بدين - على مسافة - مثل إكليل من النجوم.

في اليوم التالي، قام جمع من العفاريت الفاتنات وأمهاتهن بخدمة ستيف وطلبن منه أن يبتدع شيئاً يفوق حتى اختراع الكتان.

وأضافت ملكة العفاريت: «نعم، ولو لم يتعلموا من الخنزير البري لما عرفوا حقول الطحين».

وأجابهن ستيف الهرم من فوره: «نعم»، واضعاً طاقية تفكيره الحمراء على رأسه. حينئذ تضاحكت بعض بنات العفاريت الصغيرات، فقد رأين أنه بالفعل يشبه عرف الديك، وقلن لبعضهن بعض: «لا غرابة في أن يسموه هانيكم».

كان ستيف يستمتع بمثل هذا المزاح، وكان يعلم كل من يصغره من العفاريت أن من يجتهد أكثر بعمل يديه وعقله في صغره، سيحصل على أكبر قدر من المرح في كبره.

Twitter: @ketab_n

أولاً، ذهب من فوره لزيارة فرو، روح أشعة الشمس الذهبية والمطر الصيفي الدافئ الذي يملك اثنين من أجمل أشياء العالم. أول هذين الشيئين هو سيفه الذي لا يكاد يسل من غمده في وجه الأعداء الأشرار حتى يقاتلهم من تلقاء نفسه رابحاً كل معركة. كان أهم أعداء فرو عمالقة الصقيع الذين يُذبلون الأزهار ويفسدون النباتات المفيدة للإنسان. كان فرو غائباً عندما وصل ستيف إلا أن زوجته وعدت أنه سيعود في اليوم التالي وقد عاد. وكان فرو يرحب بكل العفاريت والجان وهم يردون له الجميل بعمل أي شيء يطلبه منهم وهم في غاية السعادة لخدمته. كان فرو يعرف كل أسرار حقول القمح، فقد كان بإمكانه أن يرى ما يوجد بكل بذرة من سنابل ناضجة. لقد وصل في مركبته الذهبية يجرها خنزيره البري الذي اتخذه بدلاً من الجواد. وكان الخنزير والمركبة كلاهما يسيران محمولين على أطراف سنابل القمح أسرع من الريح.

كان اسم الخنزير جولن أو شوارب الذهب. كان فرو يحتفظ في مركبته بعينات من كل الحبوب والفواكه والخضر التي يعرفها البشر، وكان يمكن لستيف أن يختار منها أنواعاً يبذرها على الأرض كعادته.

Twitter: @ketab_n

عندما أخبر ستيف فرو بغرضه، التقط فرو حزمة قمح وهمس شيئاً في أذنه. ثم سار بعيداً في انفجار ذهبي أبهر حتى العفاريت المولعين بضوء الشمس الساطع. فهؤلاء العفاريت يسعدهم دائماً أن يروا المركبة الذهبية تقبل عليهم أو تمر بهم.

واستدعى ستيف كذلك لمساعدته الأقـزام ومـن هذه المخلوقات الصغيرة القبيحة، استقى بعض التلميحات المفيدة. ذلك أن سكنهم في المغارات المظلمة علمهم الكثير من الأسرار التي كان يسميها الناس الخيمياء وصاروا يسمونها الكيمياء.

فيما بعد، ضرب ستيف سوراً حول نفسه على قمة أحد التلال المشمسة الساطعة، ليمنع عنه المتطفلين، وارتدى طاقية التفكير وظل يجري التجارب طوال سبعة أيام. ولم يسمح لأي عفريت برؤيته ما خلا خدمه. في نهاية الأسبوع، مبقياً على سره بعدما علم الفن الجديد لنحو دزينة من بنات العفاريت، دعا ستيف كل عفاريت الأراضي المنخفضة[1] للحضور إلى عرض عظيم ينوي تقديمه.

(1) اسم يطلق على تلك المنطقة من أوروبا الواقعة بين فرنسا وألمانيا وهي الترجمة الأدق لاسم هولندا الحالي: نيدرلاند (م).

Twitter: @ketab_n

وكم كان عرضاً مضحكاً! على دكة واحدة طويلة، وضعت نصف دزينة أحواض، وعلى طاولة قريبة منها ستة ألواح من النوع الذي يكوى عليه وعلى كل منها مكواة. وهناك موقد يمده الفحم المشتعل بالحرارة لتسخين المكاوي. خلف الأحواض وألواح الكي وقفت بنات العفاريت الاثنتا عشرة، يلبسن – كلهن – أردية وطواقي بيضاء نظيفة بلا ذرة تراب، كالجليد. وكان الناظر ليظن أنهن لسن من العفاريت السود ولكن من عفاريت المروج. كان المذهل في ثيابهم الكتانية أنها ليست فقط رقيقة كالنجوم ولكن أيضاً لمعانها الذي يجعلها تبدو كما لو أنها وضعت على أرض أصابها الصقيع الأبيض.

ذلك على الرغم من أن الطقس مازال صيفياً دافئاً. ما كان شيء قد تجمد أو ذاب، وكانت أجساد عذارى العفاريت ذوات الخدود الوردية جافة، لكنهن كن يشبهن زنابق الحدائق المتلألئة بقطرات الندى.

عندما تجمع الحضور، طلب ستيف من بعضهم أن يخلعوا ملابسهم المغبرة المبقعة من جراء الرحيل إلى مكان العرض ويعطوه إياها. وتناولت الملابس البنات المدربات اللائي كن ينتظرنها. وفي لمحة عين، غسلت الملابس وعصرت وجففت. ولوحظ أن

Twitter: @ketab_n

بنات العفاريت الواقفات على الحوض الأخير كن يتوقعن أن يقمن بعمل عظيم حينما رفعت الخمس الواقفات وراء الطاولة المكاوي الساخنة عن الموقد. ولامسن سطح كل مكواة بنقطة ماء ليتأكدن من أنها ستنزلق عنه بسهولة. وكانت عيونهن جميعاً معلقة بستيف، الذي وقف أمام الجميع وقال بصوت جهوري: «أيها العفاريت والجان، أيتها العذارى الطحلبية وجان الحظائر، يا جميع الحضور فلتروا اختراعنا الذي ساعدنا على إنتاجه صديقنا العظيم فرو وأصدقاؤنا الذين لم تقل مساعدتهم عنه العفاريت السود. لتشاهدوني الآن أثبت لكم فضائله».

وعلى الفور أخرج، أمام الجميع، مادة لماعة – كان جزء منها على شكل مسحوق والجزء الآخر على شكل كتل مربعة – بيضاء كالطباشير. بسهولة كسر منها كمية بأصابعه، أسقطها في الحوض الخامس. وبعد أن غمس الملابس المغسولة في السائل الصمغي الأبيض، أخرجها وعصرها وجففها قليلاً بأنفاسه ثم ناولها للعفاريت المكوجية. وفي لحظات قليلة، رفع هؤلاء أمام الجمع ما لم يكن قبل قليل سوى ملابس مغبرة مبقعة وقد صارت ملابس بيضاء متألقة. ولم يكن لأي أرض مهما كانت أن تبيضها على هذا النحو، ولا أن تضيف إليها سطحاً لامعاً إلى هذا الحد.

Twitter: @ketab_n

إنه النشاء – مستحضر جديد للثياب. وقد صفق الجان جميعاً بأيديهم بهجة وحماساً.

«ماذا نسمي المادة؟» هكذا سأل ستيف بتواضع، موجهاً كلامه لأكبر الأقزام سناً.

«من الآن فصاعداً سنسميك ستيف ستيرك: النشاء الصلب». وضحك الجميع.

وبسرعة شديدة، سمع أهل هولندا رجالاً ونساء باختراع العفاريت واستفادوا منه. الآن بدت خزاناتهم المليئة بالكتان كأكوام الجليد. وبطول وعرض الأراضي المنخفضة، صنعت النسوة قبعات بأشكال جديدة. وفي كل بلدة، سرعان ما صار بإمكان الواحد أن يقرأ على اللافتات: «هنا نقوم بالكي».

مع الوقت، صنع الملوك والملكات والنبلاء ياقات (أو أطواق رقبة) ضخمة، كثيراً ما كانت تخفي رقابهم وتخبئ رؤوسهم، من أطواق الكتان المموج أو الشبيكة. وكانت تنتصب مسافة قدم أو نحو ذلك. وصبغ المتحررون نشاءهم باللون الأصفر، والمحافظون باللون الأزرق. أما المعتدلون فقد أبقوه أبيض كالجليد.

Twitter: @ketab_n

جلب النشاء للأمة مالاً وثراءً، وصارت خزائن الملوك مكدسة بنقود الضريبة المفروضة على الياقات وعلى النشاء الذي صار يستورد كما يصنع محلياً في الكثير من البلاد. وهكذا من قلب الدقيق القديم ولدت روح جديدة تعمل على الحلاوة والجمال والصحة والنظافة. ومن مادة مفيدة قديمة قدم مصر، ولد فن رفيع أضاف لمجموع الثراء والمتعة في العالم.

Twitter: @ketab_n

العفاريت والأجراس

عندما زارت الملكة وليمينا، في صغرها، برابان وليمبورج[1]، استقبلها الأهالي بالمهرجانات والمسرحيات، التي قام فيها الناس الصغار الذين يسمون كبوتر بالهولندية وكوبولد بالألمانية بالتمثيل واستعراض حيلهم. فيما قدم أناس صغار آخرون، اسمهم جنوم[2] العروض المسرحية. وتعيش الكبوترات وهي العفاريت السمراء في الغابات والمناجم. أما العفاريت البيضاء فتعيش في الحقول المفتوحة والشمس الساطعة.

يقوم الأقزام بالتفكير، أما العفاريت فيعملون بأيديهم في التعدين وتجميع الأحجار والمعادن الكريمة. إنهم قصار مكتنزون، بالغو القوة والنشاط في استخراج الفحم والحديد والنحاس والذهب. عندما خُلق العفاريت السود أول ما خلقوا، كانوا من القبح مما اضطرهم إلى العيش في الأماكن المظلمة حيث

(1) مناطق تقع بين هولندا وبلجيكا (م).

(2) gnome: مخلوق الحدائق الطيب، وقد ترجمت الكلمة إلى قزم فيما ترجمت كلمة goblin وهو أشبه بالعفريت الأسود إلى غول (م).

Twitter: @ketab_n

لا يمكن أن يراهم أحد. والعفريت الراشد منهم يبدو مثل شيخ بلحية، إلا أن أحداً لم يسمع بعفريت أطول من ياردة. أما بالنسبة إلى الأطفال فحجمهم لا يكاد يزيد على حجم إبهام رجل. والأولاد والبنات الكبار ليسوا أطول كثيراً من قدم.

وما يميزهم جميعاً أنهم يساعدون الأناس الطيبين الحكماء على تحسين ظروفهم لكنهم مولعون بتعذيب البلداء والأغبياء والكسالى والأشقياء. وبشماتة العفاريت يغوون «رؤوس الجبن»، كما يقال عن الأغبياء بالهولندية، لتسوء ظروفهم أكثر.

منذ زمن طويل، لم يكن هناك في بلاد الهولنديين أبراج وأجراس كنائس كما يوجد اليوم. وقد جاء المعلمون الصالحون من الجنوب إلى البلاد وعلموا الأهالي أن يكتسبوا أخلاقاً أفضل ويرتدوا ملابس أرقى ويتناولوا طعاماً أفيد. وأقنعوهم بنسيان آلهتهم الفظة وعادات الانتقام التي كانوا عليها. لقد حدثوهم عن الرب الذي يحبنا جميعاً كأبنائه ويغفر لنا عندما نتوب عن أفعالنا الشريرة.

وعندما سمع قادة الأقزام والعفاريت السود بوجود القادمين الجدد إلى البلاد، عقدوا اجتماعاً وصار يقول أحدهم للآخر: «سنساعد كل من هو صالح وطيب من المعلمين، لكننا سنعذب الأفظاظ منهم ونعاقبهم».

Twitter: @ketab_n

وهكذا أرسلت التعليمات لكل الأشخاص الصغار في المناجم والتلال، تخبرهم بما يجب أن يعملوه وكيف عليهم أن يتصرفوا.

وكان بعض المعلمين الجدد أجانب لا يعرفون عادات البلاد، فكانوا شديدي الفظاظة وقليلي الأدب والذوق. وكل يوم كانوا يجرحون مشاعر الناس قاطعين الأشجار بفؤوسهم، وضاحكين من الناس إذ يرونهم يصلون لوودن العظيم سيد الغربان السوداء التي تنبئه بكل شيء أو لفريا الرقيقة سيدة اليمام الأبيض الذي يعين البنات الصالحات على الحصول على أزواج طيبين. وكانوا يعنفون الأطفال لأنهم يلعبون. فكان هذا السلوك سبب غضب الكثير من الناس الذين رفضوا الاستماع إلى المبشّرين الأجانب.

والأسوأ من ذلك أن مشكلات كثيرة ألمت بهؤلاء الغرباء فأصبحوا يجدون خبزهم حامضاً عندما يخرجونه من الأفران، كذلك الأمر بالنسبة إلى حليبهم. أحياناً ما وجدوا أفرشتهم مقلوبة رأساً على عقب، وكان الحصى يقعقع في الموقد الذي يدفئهم. وكانت تختفي أحذيتهم وقبعاتهم، فعندما يغضب عفريت أسود على شخص ما يعرف كيف يعذبه.

Twitter: @ketab_n

لكن المعلمين الحكماء الرقيقين لم يواجهوا أي مشكلات. كانوا يقنعون الناس بالكلمة الطيبة وتماماً كما يتعلم الطفل أن يأكل الطعام الجيد، كذلك صار الناس يمتنعون عن عاداتهم الخاطئة ومعتقداتهم الحمقاء. جاء الكثير من أهل البلاد ليستمعوا إلى المعلمين ويساعدوهم عن طيب خاطر في بناء الكنائس.

الأروع من ذلك كان ما يحل بهؤلاء المعلمين الطيبين من خير دون أن يعرفوا كيف. فقد كان خبزهم وحليبهم دائماً وفيراً وطيباً، وكانوا يجدون فرشهم مرتبة وملابسهم نظيفة وقد زرعت حدائقهم بالزهور المتفتحة. فكانوا عندما يبنون كنيسة في القرية، يتساءلون كيف يجدون مثل هذه الوفرة – ومثل هذه السهولة – من الخشب والمسامير والحديد الضروري لتدعيم الأعمدة، والنحاس والقصدير المستعملين في أوعية القداس. وفي بعض الليالي، حين كانوا يتساءلون من أين يأتي الطعام، دائماً ما كانوا يستيقظون في الصباح ليجدوا شيئاً جيداً معداً لهم. هكذا شيد العديد من دور العبادة، وكلما زاد عدد الكنائس، زادت المزارع والأبقار وحقول القمح، وتكاثر الناس السعداء.

Twitter: @ketab_n

وحين سمع الأقزام والعفاريت السود الذين يهوون مساعدة لطفاء الناس بأن المعلمين الصالحين يريدون أجراس كنائس لدعوة الناس إلى العبادة، عزموا على إعانة هؤلاء الغرباء ليس بصناعة جرس أو مجموعة أجراس فحسب ولكن مصلصلة[1] تكون بمثابة جوقة من الأجراس معلقة في الهواء.

لم يكن الأقزام السمر يحبون الاقتراب من المعادن التي تصنع منها السيوف والرماح أو غيرها مما يؤذي الناس، لكن أجراس الكنيسة ستدل الراحلين في الغابة على الطريق وتهدّئ العواصف التي تدمر البيوت وتخل بتوازن المراكب فتغرق الناس، إضافة إلى أنها تدعو الناس للمجيء لأداء الصلاة والترتيل. وكانوا يعلمون أن المعلمين الصالحين فقراء وليس بوسعهم شراء الأجراس من فرنسا أو إيطاليا. فحتى إن كان لديهم المال، فلن يكون بوسعهم نقل الأجراس عبر الغابات الكثيفة أو فوق المحيطات، لأنها ثقيلة جداً.

عندما أُخبر العفاريت بذلك، اجتمعوا وبدأوا يعملون ليل نهار في المناجم. وبالمعول والجاروف، بالعتلة والإزميل، والمدقة والمطرقة، كسّروا الحجارة التي تحتوي على النحاس والصفيح.

(1) هي جهاز عبارة عن عدد كبير من أجراس الكنيسة متصل بعضه بعض يدار آلياً مثل جوقة عزف (م).

Twitter: @ketab_n

ثم أشعلوا حرائق ضخمة تعوي نيرانها ليصهروا الخامات في سبائك. كانوا مصممين على أن يثبتوا للمعلمين أنه بمقدور عفاريت هولندا السمر صنع الأجراس بكفاءة رجال الجنوب، فهؤلاء الأشخاص الصغار يغارون من البشر ويفخرون كثيراً بما يستطيعون فعله.

ويا له من مشهد مضحك أن ترى هؤلاء الأشخاص بأرجلهم القصيرة، ومعاطفهم متناهية الصغر تصل إلى أسفل أفخاذهم بقليل، على رؤوسهم قبعات حمراء صغيرة تشبه الجوارب وتنتهي بشرابة، وفي أقدامهم أحذية بلا أربطة لكن أطرافها المدببة طويلة جداً. وقد راحوا يتطايرون هنا وهناك بنشاط بالغ وكأنهم قردة، فحين تبلغ النار درجة الحرارة المطلوبة يخلعون ملابسهم ويعملون بهمة أكبر ولوقت أطول بكثير من البشر.

هل كانوا مثل بقية الجان؟ الحقيقة أنهم بالكاد يشبهونهم؛ وعلى الإنسان أن يتخلى عن كل أفكاره المعتادة حول الجان حين يفكر بهؤلاء العفاريت. فلا أجنحة شفافة على ظهورهم مثل التي على ظهور الجان، ولا ملابس لطيفة رقيقة. وهم بلا نجوم أو تيجان أو عصي سحرية! فبدلاً من هذه الأشياء يستعملون المطارق والأزاميل والفؤوس. لكن يا لهم من أشخاص صغار

Twitter: @ketab_n

مجتهدين ونشطين ومفيدين بمعاطفهم الخشنة البسيطة وأرجلهم العارية! فبدلاً من الأشياء الساطعة السهلة النظيفة، للعفاريت السمر أفران وخلاقين ونيران تشتعل على الفحم والحطب.

أحياناً ما يكونون قذرين بسبب الدخان وأغبرة الفحم والعرق الذي يجري على وجوههم وأجسادهم. لكن المناجم دائماً ما يكون فيها ماء وفير، وعندما ينتهون من أعمالهم الشاقة، دائماً ما كان العفاريت السمر يغتسلون فيبدون – رغم انعدام جمالهم – مرتبين. وإضافة إلى مخازن الذهب والفضة والأحجار الكريمة التي يحتفظون بها لكي يهدوها إلى الصالحين من الناس، كان عندهم أشياء لإزعاج غلاظ القلوب والبخلاء والكسالى وإلحاق الأذية بهم.

إذن، عندما بدأ آباء العفاريت السمر بإشعال نيرانهم الهائلة، لم يكن بمقدور الأمهات الصغيرات ولا أطفال عالم الكبوتر أن يبقوا بلا عمل. فدخلوا جميعاً المناجم وتركوا ما كانوا يفعلونه قبل ذلك من إزعاج على الفتيات اللائي يحلبن الأبقار وتجعيد حزم الكتان وتقطيع شباك الصيادين أو عقد أذيال البقر بعضها ببعض وإيقاع الأواني والأطباق والطناجر في المطابخ أو تخبئة القبعات ورمي الأحجار في المداخن. وحتى إنهم كفوا عن المرح الذي يتخذونه من الضحك على الأطفال الذين ينادون

Twitter: @ketab_n

الأبقار لترجع إلى البيوت من المراعي، بالاختباء خلف الأحجار والصياح عليهم. وبدلاً من كل هذه الحيل والمقالب، وفروا أنفاسهم للنفخ في النيران حتى تشتعل أكثر وأكثر. وكان الكل يتساءل أين ذهبت العفاريت، ففي المزارع والمدينة لم يعد يحدث شيء وبات كل شيء هادئاً كما لو أن هناك طفلاً نائماً.

لأيام وأسابيع تحت الأرض، اجتهد العفاريت حتى اسودت جلودهم فوق سمرتها الأصلية واتسخت كالعوارض الخشبية في أسقف بيوت أجدادنا. في النهاية، عندما تنتهي جميع الأعمال، كان يدعى الأقزام إلى المناجم للتأكد من سلامتها.

ويا له من منظر! كان هناك ما لا يقل عن مئة جرس بجميع الأحجام، كما لو أنها أفراد أسرة كبيرة فيها أب وأم وراشدون وصغار من الأبناء والبنات، ثم أطفال ورضع سواء أكانوا منفردين أو توائم أوأو أكثر. كانت هناك، في صفوف، أجراس ضخمة بالكاد يمكن وضعها في برميل كبير، وأجراس يمكن أن يحتويها برميل صغير أو برميل بوشل أو بك[1]. وفي وسط المجموعة، متدرجة في الصف، وقفت أجراس أخرى كثيرة بعضها لا يزيد حجمه عن أجراس الأبقار وأخرى صغيرة حتى تكاد لا ترى.

(1) مكاييل لوزن الحبوب: البك ربع بوشل، والبوشل يساوي حوالي 35 لتراً من السوائل (م).

Twitter: @ketab_n

وإلى جانب كل هـذه، كانت هناك أكـوام من القضبان والأعمدة الحديدية، إلى جانب الصواميل والأقفال والمزالج والأسلاك وأكثر من نير تعلق منه الأجراس.

كانت جماعة من أقـوى العفاريت السود مشغولة في الغابة القريبة من القرية حيث أوشك بعض الرجال - بأمر من مبشّر أجنبي - على قطع بعض أحسن الأشجار القديمة الهائلة وأقدسها. كان الرجال قد تركوا معداتهم في الغابة حين غادروها ليلاً، فأخذ العفاريت فؤوسهم وبهمة عالية - خلال الليل - راحوا يقطعون كل أشجار الغابة إلا تلك القديمة المقدسة فقد حافظوا عليها. وجيء بالخشب مقطعاً وجاهزاً لحمل الأجراس إلى فم المنجم.

يسمى الجرس بالهولندية كلوك، لذلك يقال لعازف الأجراس كلوكن سبيلر. وقد جيء بقزم حكيم ذي لحية رمادية ليقوم بهذا الدور ويعدّ الأجراس لعمل مصلصلة. وعلقت الأجراس جميعها في صف طويل على حوامل بهدف تجريبها؛ وكان كل من هذه الحوامل يسمى «المشد»، فهو طبق الأصل من «المشدات» التي يفرد عليها الصيادون شباكهم لتجفيفها وتخييطها.

Twitter: @ketab_n

وعندما أصبح الجميع جاهزين، بعدما اغتسلوا وارتدوا ثياباً نظيفة، صُف كل فرد من كل عائلة من عائلات العفاريت السمر في صفوف وطلب منهم الغناء. وأصغى الأقزام الذين قاموا بدور الحكام إلى التينور والباريتون من الرجال والسوبرانو والكونترالتو من النساء، والتريبل من الصغار (وهي، كما تعلمون، درجات الصوت في الغناء الأوبرالي) وحتى صرير أصغر الأطفال وهديل الرضع. فاختار السيد الجليل كلوكن سبيلر – مدير المصلصلة – أنقى الأصوات نغماً وأجودها ليرتب عليها الأجراس.

وكان مما يدعو إلى الشفقة رؤية إلى أي حد جن بعض العفاريت غيرة – رجالاً ونساءً – حين لم يعين مكانهم في الصف الأول، حيث وقف بعض أضخم الرجال وأسمن النساء وتدرج الصف بطول أربعين أو خمسين شخصاً، يتضمنون الأشقياء الصغار من كلا الجنسين وحتى الرضع تحملهم أمهاتهم. كان كل منهم يصرصر ويحمحم كما أحب، يهدل ويصيح على راحته، فقد اختلطت أصواتهم وأصبحت الجلبة الصادرة عنهم أشبه بالرنين الرقيق.

صار الجميع جاهزاً، فثبت العجوز شوكته الرنانة التي يدوزن بها بإشارة من كبير الأقزام بدأ الجميع في لحن.

Twitter: @ketab_n

في ذلك الصف الطويل كان هناك، في البداية، دوي وهدير، قعقعة وصرصرة، خبط ورقع. حتى بدا الصوت أشبه بجلبة عظيمة في أوبرا. وكاد كبير الأقزام يشعر بالإحباط.

إلا أنه ليس في العالم من قزم أو عفريت أسمر يفقد الأمل أو يستسلم. حاول قائد الجوقة مرة بعد مرة، معنفاً أحد الآباء لأنه يغني بصوت أكثر غلاظة مما يجب، وممتعضاً من شاب قوي البنية حاول أن يكتم بقية الأصوات بصياحه الذي يذكر بخوار الثور. وهز سبابته في وجه فتاة صغيرة كانت تغازل صبياً وسيماً يقف بجوارها. وشجع الصغار، مشيعاً بينهم روح البهجة ليبقوا على أصواتهم مرتفعة. حتى انتظمت الأصوات كلها أخيراً. حينئذ ظلوا يتدربون حتى تأكد مدير المصلصلة من صحة مقاييسه الموسيقية وأصدر الأوامر بدوزنة الأجراس. ولشد ما ابتهج كل من دعي إلى الحفل الموسيقي من الأقزام والعفاريت حين أصدرت صفوف الأجراس – وهي مئة أو أكثر تتدرج من المدوية إلى الرنانة – نغماً منسجماً متسقاً مما يسميه أهل الموسيقى هارمونية. بعدما علقت الأجراس الواحد فوق الآخر، أصبح بإمكانها التعبير عن البهجة أو الحزن، على انفراد أو في قعقعات وحمحمات جماعية، وشلالات نغم مصلصلة، بحلاوة وتأثير.

Twitter: @ketab_n

ورداً على الأنغام المنخفضة كان الرضع يرددون «كاو كاو» (ما يعني، بالإنجليزية: بقرة بقرة). أما على تلك المرتفعة فكانوا يقلدونها بكلمة بيرد بيرد (طائر طائر).

وهكذا حدث أن خطط العفاريت لمفاجأة كبيرة يوم أكمل الأسقف بناء كنيسته العظيمة، ببرج بصلي الشكل رائع، وفرش وثير بالداخل ولكن دون جرس واحد يدق فيها.

كان الوقت ليلاً والأسقف قد أعد عدلي خرج دابته (كما يسمى الكيسان اللذان يحملهما الجواد على جانبيه أثناء السفر) استعداداً للقيام برحلة إلى مدينة رايم[1] حيث تحط القوافل الكبيرة الآتية من الهند والصين رحالها، فتملأ المهرجان السنوي بالسجاجيد والعطارة والجواهر والبضاعة الشرقية. وكان تجار رايم يلعبون بالذهب لعباً، من أرباح هذه التجارة. هنا كان ينوي الأسقف تسول المال أو طلب جرس أو مجموعة أجراس.

فجأة، أثناء الليل، بينما الأسقف في بيته، صدحت في الهواء موسيقى لم يكن قد سمع مثلها في هولندا أو في أي من المقاطعات السبع عشرة للأراضي المنخفضة. والحقيقة أن أذناً بشرية لم تكن قد وقعت على مثل هذا الدفق من النغم الحلو، ولا حتى في

(1) شمال شرق فرنسا (م).

Twitter: @ketab_n

الأراضي القديمة لفرنسا وأسبانيا وإيطاليا. هنا في هذه المناطق الشمالية، لم يُسمع دق منفرد ولا دوي متقطع ولا حتى ما تعزفه مجموعة أجراس متجانسة – بل كان ما سمع برنامجاً طويلاً وثرياً من الموسيقى ليس له مثيل في أي من البلاد الأخرى، مهما بلغ ثراؤها أو قدمها – إنها المصوصلة، بمعنى أدق: موجات مستمرة من الموسيقى الحقيقية تتضمن ألحاناً كاملة وأغنيات وقطعاً معقدة من الطول والكثافة والهارمونية بحيث لا يمكن لغير جوقة متعددة الأصوات أو فرقة موسيقية أو أوركسترا متعددة العازفين أن تؤديها.

ولكي يتم تعليق هذا الإنجاز الكبير في برج الكنيسة ليلاً، وقبل أن يشرق النهار، كذلك، كان يتطلب جيشاً كاملاً من الجان يعملون كالنحل. ذلك أنه إذا ما أصاب عفريتاً أسمر شعاع واحد من أشعة الشمس، فإنه يتحجر على الفور. إن عفاريت النور تعيش في ضوء الشمس، أما العفاريت السمر من أمثال الكبوترات الذين يتخذون لأنفسهم بيوتاً تحت الأرض، فإن أشعة الشمس كالسهام المسمومة تأتي بالموت المحقق، لأنها تحيلهم حجارة. ولحسن الحظ كانت المهمة قد أنجزت قبل أن تصطبغ السماء الشرقية باللون الرمادي

Twitter: @ketab_n

أو تصيح الديكة. وفاضت الموسيقى في الهواء وملأت الأرض والعالم لا يزال في ظلام. أصغى الناس في أفرشتهم مسحورين.

«لاوس ديو» هكذا صاح الأسقف المندهش: الشكر لله. «يبدو وكأن هناك جوقة من الملائكة. لا شك أن الشاروبيم والساروفيم[1] قد جاءوا. وها هو وعد المزامير يتحقق وتأتي الآلات الموسيقية».

وهكذا، منذ البداية انطلقت المصوصلات في المنطقة الممتدة من غابات أردن[2] وحتى جزيرة بحر الشمال، ما كان – بالنسبة إلى المبشّرين الخشنين الأغبياء المفتقرين إلى الحكمة – لغزاً عجيباً صار أوضح فأوضح في نظر المبشرين اللبقين الطيبين الصبورين. وصارت نيديرلاند أرض السيمفونيات الأخاذة والأجراس الرنانة. وأصبح لكل بلدة مهما كانت فقيرة مصوصلتها. وكل ربع ساعة كانت الموسيقى الحلوة لترنيمة أو أغنية تمنح الهواء صوتاً، بينما أخفض الورعون رؤوسهم كل ساعة مع دق الأجراس، وأدرك العمال أن وقت راحتهم حان أو ابتهجوا لانتهاء يوم آخر من الجهد الشاق. في الشروق والظهر والغروب.

(1) في الديانة المسيحية، جنسان من الملائكة ، أولهما أشبه بالأطفال (م).
(2) منطقة غابات شهيرة تمتد عبر بلجيكا وفرنسا ولكسمبورج (م).

Twitter: @ketab_n

وقد جرت العادة فيما بعد على إقامة حفلات موسيقية ضخمة تدوم كل منها أكثر من ساعة في أيام معينة من السنة، وتعزف فيها على المصوصلة أعمال الموسيقيين الكبار، ويأتي عازفو المصوصلة المشاهير من جميع أنحاء هولندا للتنافس على الجوائز. وصارت الأراضي المنخفضة مدرسة شهيرة لتدريب العديد من الكلوكن سبيلر، ولم تضاهي مملكة مهما كان ثراؤها أو عظمتها أرض المصوصلة في تحلية الهواء بالنغم والهارمونية.

لا يرى أحد العفاريت السمر اليوم أبداً، لأن الناس نسيوا أولئك الأشخاص الصغار في عالمنا الجديد، ذلك العالم المصنوع من محركات البخار والتلغراف، والسيارة والطائرة والغواصة. وقد بات الصيادلة وعلماء المعادن والمهندسون يملكون أسراراً كانت ذات يوم مقصورة على الجان وحدهم. إلا أن الفنانين والمعماريين، وصانعي الساعات والأجراس الذين يعشقون الجمال، ما زالوا يذكرون ما كان أجدادهم يظنون ويعتقدون. لذلك تجد على الكثير من الساعات الكبرى الشهيرة، إما في واجهة القرص المدرج أو بالقرب من البندول، هيئة الأقزام الذين فكروا، والكبوترات الذين

Twitter: @ketab_n

صنعوا المصوصلة. في الأراضي التيوتونية[1]، حيث يسمى أبناء عمومتهم الكوبولدات، وفي فرنسا حيث يسمون الفييه، وفي إنجلترا حيث يقال لهم البراونيز، توجد أجراس تدق وترن وتصدر شلالات من النغم. لكن في هولندا وحدها - ودون كل بلاد الأرض - توجد المصوصلة.

Twitter: @ketab_n

(1) كلمة تطلق على الشعوب الجرمانية وأحياناً السلتية المجاورة (م).

المرأة التي أنجبت ثلاثمئة وستة وستين ولداً

منذ زمن طويل، طويل، قبل أن يكون طائر اللقلق العجوز فتياً، والغزلان وصغارها تجري بلا عدد في الغابات الهولندية، كانت هناك بركة مشهورة بأسماكها تقع في قلب هولندا تماماً وفي جوارها غابة. وكان يأتي الصيادون بأقواسهم وسهامهم لصيد الأيائل. ومن قلب المياه الساطعة، كان الرجال والصبيان يخرجون الأسماك ذات الحراشف اللامعة أو يغوون السلمون المرقط من مكامنه بطعم من الذباب. في تلك الأيام، كانت البركة تسمى فيجفر، والغابة حيث تركض الغزلان رنسلاير، أو عرين الغزلان.

لذلك، لأن غابات البلوط والزان وجار الماء[1] غنية بالخيرات، لأن الصيد وفير على الأرض وفي الماء، جاء سيد هذه الأرض ليبني قلعته هنا، فأنشأ سياجاً من الأشجار حول مزرعته، حتى صار الناس يسمون المكان (بالهولندية) «سياج الكونت»، أو على سبيل الاختصار السياج، ويعني بالهولندية الهاج.

(1) شجر صغير من فصيلة البتولا ينمو في جوف الماء أو إلى جواره (م).

Twitter: @ketab_n

وحتى اليوم، داخل المدينة الجميلة، لا تزال الغابات بشجرها القديم العظيم، وكذلك البركة التي تدعى فيجفر ببجعها. على الجزيرة الصغيرة، يولد إوز التميم الصغير المزغب ذو الريش الناعم ويكبر حتى يصبح طائراً برقبة طويلة مقوسة كالقنطرة. وفي جزء آخر من المدينة، أيضاً، حيث الأشجار التي تؤوي أعشاشها، والبركة التي تخوض فيها بأرجلها، يعيش أبناء اللقالق التي عاشت آباؤها وأمهاتها هنا قبل أن تكتشف أمريكا.

مع الوقت، جاء الكثيرون من ذوي الجاه والثروات إلى الهاج، وبنوا بيوتهم الفخمة على سفح التل غير بعيد من الفيجفر، فنمت - على مر السنين - مدينة.

وكان مشهداً بديعاً أن ترى اللوردات والسيدات خارجين على ظهور الجياد من القصر إلى الريف، وتلك المواكب الفخمة الخارجة للصيد بالصقور. كانت هناك نساء جميلات على ظهور الخيل، ورجال نبلاء في ملابس مخملية وقبعات يعلوها الريش، حتى بدا أن الجياد مختالة بحملهم على ظهورها. كان البازدارت كما يقال لمربي الصقور يتبعونهم راجلين، والطيور جاثمة على طوق يحمله البازدار حول جسده. وكان على رأس كل باز طاقية أو قلنسوة مربوطة، حين تفك يطير عالياً في الهواء

Twitter: @ketab_n

باحثاً عن فريسته من الطيور الصغيرة والكبيرة التي تعود بها إلى أسيادها. كان هناك أيضاً رجال يقودون للعثور على الطيور الصغيرة. وكان الصيادون مسلحين بالرماح تحسباً لهجمة خنزير بري أو دب. وكان دائماً يوماً بهيجاً ذلك الذي تخرج فيه جماعة صيد بالصقور، في أرديتها الراقية وعدتها الباعثة على المرح.

ولم تخل الهاج أيضاً من الأكواخ البسيطة والفقراء. من ضمن هؤلاء، أرملة لم يجد طفلاها التوأم ما يأكلانه إذ كان زوجها – أبوهما – قد قتل في الحرب. ولأنها لا تملك من المال ما يمكنها من شراء مهد، ولأن طفليها أصغر من أن تتركهما وحدهما، فقد حملتهما على ظهرها وخرجت تتسول.

تصادف أن كانت هناك سيدة راقية، كونتيسة، تسكن مع زوجها الكونت بالقرب من الفيجفر، كانت بلا أولاد وتغار بشدة من غيرها من النساء اللائي أصبحن أمهات وصار لهن أطفال يلعبون حولهن. وفي ذلك اليوم، عندما جاءت الأرملة تتسول حاملة طفليها على ظهرها، كانت السيدة الراقية معتكرة المزاج أكثر من العادة. فعلى الرغم من كل ثيابها الراقية، لم تكن امرأة حسنة الأخلاق. وكثيراً ما كانت تزمجر غاضبة، وتردّ بنزق

Twitter: @ketab_n

على كل من يبادرها بالحديث. ورغم أنها تملك المهود والمربيات وملابس الرضع الجميلة جاهزة، لم يكن هناك طفل، وهو ما أفسد حالتها النفسية لدرجة أن زوجها وخدمها صاروا بالكاد يحتملون العيش معها.

ذات يوم بعد الغداء على مائدة عامرة بما لذ وطاب، خرجت الكونتيسة لتتمشى أمام منزلها. كان ذلك اليوم الثالث من يناير، إلا أن الطقس كان معتدلاً. وبينما تمر المرأة المتسولة مجرجرة قدميها وعلى ظهرها الرضيعان يبكيان جوعاً، دخلت إلى الحديقة تسأل الكونتيسة طعاماً أو أي حسنة. وكانت تتوقع يقيناً أنها ستحصل على قطعة خبز أو كأس حليب أو عملة صغيرة.

إلا أن الكونتيسة عاملتها بفظاظة ورفضت أن تعطيها طعاماً أو مالاً، بل ثارت ثائرتها عليها فصارت تنكر عليها أن لها طفلين وليس واحداً.

«من أين أتيت بهذين المزعجين؟ إنهما ليسا لك. لقد جئت بهما لكي تستغلي مشاعري وتثيري غيرتي، اذهبي عني».

لكن الأرملة المسكينة سيطرت على أعصابها وراحت تقول: «حباً بالسماء، أطعمي طفلي حتى لو لم تطعميني أنا».

Twitter: @ketab_n

«لا! إنهما ليسا لك. أنت نصابة،» هكذا قالت السيدة الراقية وغضبها يتأجج.

«الحقيقة يا سيدتي أنهما ولداي، وقد لدا في يوم واحد، وإن لهما أباً، لكنه ميت. لقد قتل في الحرب، وهو يخدم سمو الكونت زوجك».

صرخت الكونتيسة وقد بلغت ذروة غضبها: «دعك من هذه القصة، أنا لا أصدق أن أي إنسان، رجلاً كان أو امرأة، يمكنه الحصول على طفلين مرة واحدة. هيا، اذهبي عني»، وأمسكت بعصا تطرد بها المرأة المسكينة.

لكن الدور جاء على المتسولة لترد على الكونتيسة، فقد فقدت كلتاهما أعصابها وصارت كل منهما كأنثى الدب وقد حرمت صغارها.

«فلتعاقبك السماء أيتها المرأة الشريرة القاسية الباردة القلب»، هكذا صاحت الأم وطفلاها يخنقانها من فرط حاجتهما إلى الطعام. غير أن صراخهما لم يحرك مشاعر السيدة الغنية التي كان لديها فائض من الخبز والأطعمة الشهية، بينما أمهما المسكينة ليس لديها ولا قطرة حليب واحدة تعطيهما إياها. ثم نادت الكونتيسة

Twitter: @ketab_n

على خدمها ليطردوا المتسولة، وهو ما ما فعلوه بوحشية زائدة. وبينما كانت الأم الفقيرة تستدير لتذهب، أمسكت بطفليها من ظهرهما، واحداً في كل يد، أمام السيدة الراقية وصاحت بصوت جهوري حتى سمعها الجميع: «فلترزقي أطفالاً بعدد أيام العام».

وكان ما قصدته المتسولة والغضب يغلي في صدرها أن ترزق أطفالاً بعدد ما مر من أيام في ذلك العام وهو ثلاثة، إذ أن هذا يحدث في الثالث من يناير. فقد أرادت للكونتيسة أن تمر بصعاب رعاية ثلاثة أطفال بدلاً من اثنين، يولدون جميعاً في يوم واحد.

إلا أن السيدة الراقية في قصرها لم تأبه لكلمات المرأة المتسولة البتة. ولمَ تفعل؟ فقد كان لها زوجها الثري، وهو كونت يملك آلاف الفدادين من الأرض. وهناك في قصرها عشرة خدم من الرجال وواحدة وثلاثين خادمة، إضافة إلى الأثاث الفاخر والملابس الرفيعة والجواهر. وكانت الكنيسة الضخمة المبنية بالطوب مزينة بالشعارات الحربية لأجدادها الشهيرين. وكانت أرضيتها الحجرية، بألواحها الضخمة، محفورة بشعارات النبالة والشارات الزخرفية لدرجة أن السائر عليها يشعر بأنه يتسلق جبلاً أو يطأ حقلاً محروثاً. وكان على العامة أن يتوخوا الحذر كيلا

Twitter: @ketab_n

يعثروا في حلي الأضرحة البارزة وأزرار الزينة المثبتة فيها. كان قطار طويل من خدمها ومسأجري أراضيها يتبعها كلما ذهبت لتتعبد. وداخل الكنيسة، كان يجلس الكونت والكونتيسة على مقاعد عالية ووسائد وثيرة أسفل مظلة فارهة.

مع مجيء الصيف، حسبما تقضي العادة في العائلات الهولندية الكبيرة، كانت تعد جميع أنواع ملابس الأطفال البديعة، من أقمطة ناعمة دافئة، وجوارب متناهية الصغر، وأثواب طويلة من الكتان الأبيض. هذا إضافة إلى تطريز بطانية التعميد المغطاة بالحرير على نحو رقيق استعداداً لتسمية الرضيع حال تعميده. وكان يعد، جاهزاً للاستخدام، كم وافر من الشبيكة والشرائط الزهر والزرقاء (الزهر للبنات، والزرقاء للصبيان). ولأنه قد يولد توأم، فكانت تجهز أطقم مزدوجة من الثياب إضافة إلى أحواض الاستحمام والعديد من الأشياء اللطيفة الخاصة بالقادمة أو القادم المنتظر، سواء أكان واحداً أو اثنين. وحتى الأسماء كانوا يجهزونها: اسم ولد واسم بنت. فهل يكون وليام أو وليمينا؟

كانت هناك متعة حقيقية في عملية اختيار الأسماء، إلا أنه من الصعب الحسم في وجود أعداد كبيرة من الأسماء. أخيراً شطبت الكونتيسة كل الأسماء باستثناء ستة وأربعين اسماً.

Twitter: @ketab_n

ولكن قبل أن تشرق شمس اليوم المنتظر، لم يكن المولود ولداً واحداً ولا بنتاً واحدة، ولا كليهما. ولم تكن الأسماء الست والأربعين المختارة كافية، فقد تحققت دعوة المرأة المتسولة بطريقة غير متوقعة. كان هناك أطفال بعدد أيام السنة كلها. وعلماً بأن هذه سنة كبيسة، كان هناك ثلاثمئة وستة وستين طفلاً في البيت، ما استلزم استعمال أسماء أخرى إضافة إلى الأسماء الستة والأربعين.

غير أن أياً من هذه المخلوقات المنمنمة لم يكن أكبر من فأر. فابتداء من أول الفجر، ظهر الواحد تلو الآخر - بنت يليها ولد؛ حتى إن القابلة، بعد المولود الثامن والأربعين، كادت تجن ولم تعرف من أين تجيء لهم بالأسماء. ولم يكن من الممكن التمييز بين الرضع الصغار. فعلى الرغم من أن الخادمات الإحدى وثلاثين نودين كلهن ليساعدن في فصل الأولاد عن البنات، سرعان ما صارت مهمة التفريق بين بيتر وهنري، أو كاتالينا وأنيتي، من المستحيلات. وبعد ساعة أو اثنتين أنفقنهما على هذه المهمة، فقدت النسوة الأمل في إنجازها وكففن عن المحاولة، فقد اختلط من بين الأولاد بييت ويان وكلاس وهانك وداوو ويابيك، وكذلك موللي ومايكا ولينا وإيلسي وأنييت وماري من بين

Twitter: @ketab_n

البنات. ولم يعد من الممكن تمييز الواحد عن الآخر. فكفت الخادمات عن المحاولة يائسات. كما نفد مخزون الشرائط الزهر والزرقاء بعد أول دزينة أو زهاء ذلك. أما بالنسبة لملابس الأطفال المعدة مسبقاً، فلم تكن ذات فائدة لأن مقاساتها كلها أكبر بكثير من مقاسات المواليد الجدد. فقد كان من الممكن للواحد أن يحشر العائلة المكونة من ثلاثمئة وستة وستين مولوداً كاملة في أحد الأثواب الطويلة.

ولم يكن من المرجح أن تعيش طويلاً مثل هذه النماذج متناهية الصغر من بني آدم؛ لذا عندما سمع الأسقف الصالح جاي، أسقف أوترخت، بأن دعوة المرأة المتسولة قد تحققت على هذا النحو غير المتوقع، فقد أمر بتعميد الرضع كلهم دفعة واحدة. كما أصر على ذلك الكونت، الذي كان يتسم بالصرامة في أفكاره المتعلقة بالتقاليد وبقوانين الكنيسة.

إذن لابد من حمل الأطفال بالغي الصغر إلى الكنيسة، وبقي سؤال: كيف ينقلون إلى هناك. كان البيت قد انقلب رأساً على عقب عن آخره بحثاً عن ما يمكن أن يحمل فيه المواليد، لكن مخزون الصواني وصحون كعكات اللحم المفروم والجرار نفد كله بعد الطفل الثلاثمئة وستين. ولم يبق سوى طبق دائري من

Twitter: @ketab_n

الفخار المزجج، مقوس ومحزز، يسمونه «رأس التركي» لأنه يشبه عمامة رجل تركي. وفي ذلك الطبق وضعت آخر مجموعة من الأطفال وهي ست بنات زائدات. الغريب أن البنت رقم 366 كانت أطول ببوصة من الأخريات. وحملت كل واحدة من الخادمات صينية اثني عشر طفلاً . أما الخادمة الأخيرة فطلب إليها حمل المواليد الستة الأخيرين في «رأس التركي»، وبدلاً من البطانية الحريرية الوثيرة لم يستخدم في حمل الأطفال عرايا سوى صينية خشبية.

في الجروت كيرك - أو الكنيسة الكبرى - كان الأسقف ينتظر بصحبة مساعديه، ممسكين بطاسات من النحاس الأصفر مليئة بالمياه المقدسة للتعميد. وخرجت المدينة بأسرها، بما في ذلك الكلاب، لمشاهدة ما يحدث، وتسلق الكثير من الصبيان والبنات أسقف البيوت ذات الطابق الواحد أو أغصان الأشجار ليتمكنوا من متابعة تلك الزفة العجيبة- فلم يكن قد رأى أحد مثلها قبل ذلك في الهاج، ولم ير أحد مثلها البتة منذ ذلك الحين.

وهكذا انطلق الموكب. ذهب الكونت أولاً مع قادته وزماريه ينفخون الزمامير. وتبعهم الخدم الرجال يرتدون

Twitter: @ketab_n

أفضل ملابس الأحد وعلى صدورهم وظهورهم شعار سيدهم الكونت. ثم جاءت جماعة الخادمات وكل منهن تحمل صينية بها اثنا عشر طفل أشبه بالدمى الصغيرة. كانت العشرون صينية الأولى مصنوعة من الخشب ومبطنة بالمخمل الناعم الطري، أما العشر التالية فكانت من الفخار وبيضاوية الشكل كمعالف الماشية. وفي تلك الأخيرة كانت تخبز فطائر عيد الميلاد كل عام.

في البداية مر كل شيء بسلام، فقد بدا أن هواء الخارج قد جعل الأطفال ينامون ولم يكن هناك بكاء. لكن ما كاد الأطفال يدخلون الكنيسة حتى انطلقت حناجر نحو مئتين من الدمى الصغيرة بالبكاء والعويل سرعان ما أفضت إلى صراخ بالغ البشاعة بحيث شعر الكونت بالخزي من ذريته وبدا الأسقف شديد الاستياء. ومما زاد الطين بلة أن إحدى الخادمات، بالرغم من أنهم حذروها من هذا الخطر، تعثرت في خوذة محارب صليبي قديم كانت محفورة في الحجر ومرتفعة نحو ستة بوصات عن الأرض. وفي الحال سقطت منبطحة على الأرض، رامية ما لا يقل عن اثني عشر طفلاً أمامها. «هايليجه مايكه،» صاحت: ما مريم المقدسة، وهي تنقلب. «هل قتلتهم؟».

Twitter: @ketab_n

لكن لحسن الحظ سقط الصغار على الذيل الطويل لعباءة إحدى السيدات العجائز كانت تمشي أمام الخادمة مباشرة فلم يصابوا بأذى، وبسهولة جرى التقاطهم وإعادتهم إلى الصينية، ومن جديد انطلق الموكب.

لحسن الحظ كان الأسقف قد أُخطر بأنه لن يضطر إلى النطق بأسماء جميع الرضع، أي ثلاثمئة وستة وستين اسماً، ما كان سيستغرقه اليوم بطوله. كان قد اتفق على أنه، بدلاً من أي من الأسماء الستة والأربعين المدرجة في اللائحة، سيقال للأولاد جميعاً جون وللبنات جميعاً إليزابيث، أو (بالهولندية) يان وليزبت أو ليزابيثي. لكن حتى النطق بيان مئة وثمانين مرة وبليزبت مئة وست وثمانين مرة كان كافياً لإنهاك الرجل المسنّ حتى كاد يموت، فقد كان سميناً وبطيئاً.

وهكذا، بعدما رش الماء على الصواني الست الأولى من الأطفال المنمنين – وكان يرش الماء على كل منهم على حدة – قرر الأسقف أن «ينضح» الماء المقدس على الصينية كاملة عن طريق عصر خرقة أو فرشاة تغمس في الماء المقدس مرة واحدة. فطلب «المضخة» وغامساً إياها في طست الماء المقدس راح ينثر القطرات على الأشخاص الصغار حتى رشوا جميعاً بما في

Twitter: @ketab_n

ذلك البنات الست في رأس التركي. ولعل الأسقف ظن التركي قريباً من الوثني، فقد أهال ماء أكثر من المعتاد على هؤلاء الست حتى صرخن من البرد. ولوحظ أن الصغار الآتين في صحون الكعك، على العكس، عوملوا معاملة أرق من المعتاد، فلعل الصحون ذكرت الرجل الصالح بمجيء عيد الميلاد المبارك وطيبات الرزق على المائدة.

لكن أناساً بهذا الحجم على ما يبدو لم يتحملوا ما يتحمله بكل بساطة أصحاء المواليد ذوي الأحجام الكاملة. فإما بسبب رطوبة الجو أو الهواء البارد داخل الكنيسة المبنية بالطوب أو التوتر العصبي الزائد عن احتمالهم، وإما لأنه ليس هناك ثلاثمئة وست وستين مرضعة أو زجاجة حليب جاهزة، ما لبث الأطفال أن ماتوا عن آخرهم حين غابت الشمس.

لم يقل أين دفنوا بالتحديد لكن لمئات السنين كان في إحدى كنائس الهاج نصب تذكاري لأولئك الأشخاص الصغار الذين بالكاد أكملوا يوماً في الحياة، وقد حفر عليه اسما الكونت والكونتيسة ورويت قصة أولادهما الذين كانوا بعدد أيام السنة. وبالقرب من النصب، علقت طاستان من الطاسات التي حملت

Twitter: @ketab_n

الماء المقدس الذي رشه الأسقف على هؤلاء الرضع. كما حفر تاريخ ذلك الحدث العجيب، بالسنة والشهر واليوم. وجاء العديد من الناس من مختلف البلاد لزيارة الضريح الذي تذكره كتب الدليل السياحي. وكانت النساء رقيقات القلوب يبكين، حينما يتخيلن منظر ثلاثمئة وستة وستين مهداً في قصر الكونت، لو كتبت الحياة لجميع أولئك المواليد.

Twitter: @ketab_n

أسفار أوني

على الجانب الآخر من المحيط، في اليابان، كانت تعيش مخلوقات عجيبة يقال لها أوني[1]. وقد سمع بهذه المخلوقات كل الأولاد والبنات اليابانيين، غير أنهم نادراً ما تمكنوا من الإمساك بأحدها. في أحد المتاحف، كان يمكن للزوار أن يروا ساق عينة من الأوني مغطاة بالشعر، فقد فقد العفريت أحد أطرافه حين سقط من السماء في خضم عاصفة، وقطعت ساقه حين سقطت على الطرف المدبّب من سياج. بنبرة صدق وحماس، وقد أكد لي صبي ياباني أن جده رأى ذلك الأوني وهو يهوي من بين الغيوم.

يؤمن الكثير من الناس بأن الأوني يعيشون في السحاب ويسقطون بين الحين والآخر في أثناء نوبة رعد، وحينئذ يهربون ويختبئون في أعماق أحد الآبار أو يدخلون إلى المطابخ، ويقرعون على الصحون محدثين جلبة عظيمة. وهم يتصرفون كالقطط الفارة

(1) العفاريت والغيلان في الفلكلور الياباني (م).

Twitter: @ketab_n

من الكلاب، ولكنهم رغم شقاوتهم الزائدة لا يتسببون في الكثير من الأذى. وهناك من العجائز من يقول إن الأوني ليسوا سوى أطفال مارقين، يتصرفون كالملائكة في الصباح وكالعفاريت بعد الظهر. وهكذا نرى أن الأوني لا يُعرف عنهم الكثير.

ويلام الأوني على الكثير مما يفسد في الحياة، ويدعي الحمقى من أمثال الخادمات الأغبياء والرجال بطيئي الفهم ممن تكثر عثراتهم أن الأوني هم الذين دفعوهم إلى الخطأ. ولا سيما السكارى من الرجال، حين يتعثرون فيقعون في حفرة بالليل، فيدعون أن الأوني هم الذين دفعوهم إليها. كما يدلس على أهاليهم الأولاد الأشقياء الذين يسرقون الكعك، والبنات اللائي يأخذن السكر، برواية خرافات تحمّل الأوني وزر سرقاتهم.

ويعشق الأوني الإيقاع بالناس في مقالبهم، إلا أنهم لا يمثلون خطراً عليهم. وهناك العديد من الصور المرسومة لهم في اليابان، رغم أن أحداً منهم لم يمتثل لرسام يلتقط له صورة، غير أن هيئاتهم في تلك الصور على النحو الآتي:

لبعض الأوني عين واحدة في الجبهة، وللبعض الآخر اثنتان. وبين الحين والآخر يظهر أوني كبير الحجم له ثلاثة عيون. هناك قرون صغيرة وقصيرة على رؤوسهم، لكنها ليست أكبر من

Twitter: @ketab_n

قرون الغزلان الوليدة وهي لا تزداد طولاً مع نموهم. يتجعد شعر رؤوسهم ويتشابك مثل شعر بنت صغيرة تصرخ عندما يمسد المشط خصلاتها المعقودة، فإناث الأوني لا يستخدمون الأمشاط ولا المرايا. أما عن وجوههم فهم لا يغسلونها البتة، مما يجعلها متسخة دوماً. وجلدهم خشن مثل جلد فيل. ولكل قدم من أقدامهم ثلاثة أصابع لا غير، ولم يتفق أولئك الذين تعرضوا للأوني بالفحص والدرس إذا ما كان لهذا المخلوق أنف أو خطم[1].

لم يسمع أحد بأوني أطول من ياردة، إلا أن الأوني من القوة بحيث يستطيع أحدهم أن يرفع أكياس أرز بسعة بوشل كامل مرة واحدة. وهم في اليابان يسرقون الطعام من قرابين الآلهة. ويمكنهم العيش بلا هواء، ولا يحبون شيئاً أكثر من خمر الأرز المسمّى «ساكي»، والسائل الأسود المسمى صوي (والمصنوع من فول الصويا) الذي يضاف للأسماك كصلصة وبضع القطرات منه تكفي وجبة رجل كاملة. إن الهولنديين واليابانيين مولعون بهذه الصلصة على حد سواء.

لكن أكثر ما يبهج الأوني الصغير أن يدخل دكان الآنية، فلا يكاد يصل إلى الداخل حتى يتقافز بين الصحون والكؤوس،

(1) أنف كبير أفطس كأنف الخنزير (م).

Twitter: @ketab_n

يختبئ في الأباريق، يركب الأرفف كأنها أحصنة ويتشقلب على نضد عد النقود. والحقيقة أن الأوني ليس سوى عفريت صغير مرح. لُيلة رأس السنة، تملأ الفتيات اليابانيات أيديهن بالفول المجفف ويبذرن حفنة منه في كل غرفة بالبيت قائلات: «إلى الداخل أيها الحظ السعيد؛ ولتخرجوا أيها الأوني!» غير أنهن يضحكن مبتهجات طوال الوقت. لا يستطيع الأوني أن يتكلموا، ولكن أسنانهم تصطك ببعضها بعض فتصدر صوتاً أشبه بزعيق القردة. وكثيراً ما يبدو أنهم يتكلمون فيما بينهم بكلام لا يفهم.

ذات مرة رغب إمبراطور اليابان في أن يقدّم هدية لأمير هولندا، فأرسل إلى طول البلاد وعرضها – من حقول البطاطا الحلوة في الجنوب إلى المياه التي يعيش فيها السلمون والفقمات في الشمال – بحثاً عن شتى التحف التي تليق بهدية. وبُعث بمنتجات اليابان من المناطق الحارة حيث ينمو النيلج[1] وقصب السكر، ومن المناطق الباردة حيث يوجد الدب وحيوان الفظ، إلى بلاد السدود المائية وطواحين الهواء. كان اليابانيون قد سمعوا أن أهل هولندا يحبون الجبن، وينتعلون الأحذية الخشبية ويأكلون بالشوكة بدلاً من عيدان التشوبستيكس

(1) النيلج: نبات يستخرج منه صباغ النيلة الأزرق (م).

Twitter: @ketab_n

الشهيرة، وأن كل واحدة من نسائهم تلبس عشرين تنورة وحدها فيما يرتدي الرجال سترات لكل منها زران ذهبيان، وأن الناس عموماً يمارسون حياتهم بصورة مختلفة عما هو مألوف في اليابان.

وقد تصادف أنه – في أثناء جمع الهدايا التي تكومت في كومة عالية داخل قصر الإمبراطور في إيدو[1]، تسلل أوني صغير لم ينمُ قرناه بعد إلى حجمهما الكامل إلى المطبخ ليلاً، من خلال أنبوبة من الخيزران بجوار المضخة، ومن هناك إلى المخزن حيث كانت الكؤوس الثمينة والمزهريات، والصناديق الصغيرة المطلية بالورنيش وعلب حمل المساوك المرصعة باللؤلؤ، ونضد الكتابة ومراطبين الشاي وبالات الحرير متناثرة كلها استعداداً لوضعها في الحقائب. وكانت الأغلفة الصفراء المعدة لتغليف الأشياء الجميلة – من الذهب والفضة، البرونز والخشب، وقش الأرز لحماية الخزف الصيني – كلها في المتناول. ويا له من وقت بهيج ذلك الذي أمضاه الأوني يوقع الأشياء الثمينة ويتدحرج فوقها! حينئذ راح يقفز مثل قرد من زهرية إلى أخرى. ارتدى كيمونو سيدة حريرياً زاهياً ولف نفسه في قماش مطرز بالذهب. ثم راح

(1) الاسم القديم لطوكيو (م).

Twitter: @ketab_n

يرقص ويلعب لعبة كا-جو-را[1]، أو أسد كوريا، ويمثل أنه يغازل أونية فتاة. ويا لها من وثبات مضحكة تلك التي راح يثبها! كانت رؤيته لتضحك قطة. ولم يكف عن ذلك حتى طلع ضوء النهار ودقت أجراس الكنائس الهولندية معلنة الساعة السابعة.

فجأة أعلمه صوت مفاتيح تدار في القفل أن الباب سيفتح تواً.

أين يجب أن يختبئ؟ ليس هناك وقت يضيعه. لذا أمسك ببضع زجاجات صوي عن رف المطبخ ثم وثب إلى جوف الدرج السفلي الكبير لخزانة سيدات، وجر الدرج من الداخل حتى أغلقه.

«نامو آميدا»[2] (يا بوذا المقدس)! هكذا صاح الرجل الذي فتح الباب. «من كان هنا؟ المنظر يشبه بقايا نزهة قامت بها مجموعة من الجرذان».

ومع ذلك، سرعان ما جاء عمال القصر وأصلحوا ما أفسده الأوني، ثم عبأوا الأشياء اللطيفة وثبتوا أغطية الصناديق بالمسامير وقبل انتهاء النهار كانت التحف كلها مخزنة على متن سفينة

(1) حرفياً: الترفيه عن الآلهة، وهي رقصة تؤدى بقناع (كثيراً ما يشبه وجه أسد) لها أصول قدسية في معتقدات الشينتو اليابانية (م).

(2) إشارة إلى البوذا آميتابا وهو أحد تجليات البوذا، منطوقة باللغة اليابانية (م).

Twitter: @ketab_n

هولندية سريعة متجهة من ناجاساكي إلى روتردام. بعد رحلة طويلة، وصلت السفينة بسلام في أحسن فصول السنة، وشحنت الصناديق إلى الهاج، العاصمة. وبما أن الهدايا تخص الأمير، فقد حملت على الفور إلى قصره اللطيف الذي يقال له بيت الغابة. وهناك فرّغت الصناديق من التحف ورتبت تلك الأخيرة لكي يستعرضها الأمير والأميرة في اليوم التالي.

حين جاءت خادمة القصر في الصباح التالي لتنظف المكان وتنفض الغبار عن مختلف الأشياء، دفعها فضولها إلى فتح درج خزانة السيدات، فإذا بشيء مشعر يقفز منه كاد يفقد الخادمة صوابها. إنه الأوني، وها هو يندفع إلى الأمام وعلى السلالم ويسقط وسط ستة من الخدم كانوا جالسين يتناولون فطورهم. جرى الجميع خوفاً إلى كبير الخدم الشجاع، الذي التقط سكين اللحم الطويلة وأبدى استعداداً للقتال. وحين رآه الأوني على هذه الحال، ركض إلى قبو المؤن على أمل أن يجد فتحة أو شقاً يهرب من خلاله. في كل مكان من حوله، كانت هناك رفوف مملوءة بالجبن، جرار من الساوركراوت[1] والرنكة المخللة، وأكوام من خبز الجاودار المتراصة في الزوايا. ولكن يا لها من روائح بالنسبة إلى منخريه اليابانيين! فبالرغم من كونه أوني، قد

(1) الكرنب (الملفوف) المخلل المشهورة به ألمانيا (م).

Twitter: @ketab_n

كاد يغمى عليه، حيث لم تكن مثل هذه الروائح قد اخترقت أنفه قطّ وهو في اليابان. كان لابد له من الرجوع وإن كان يخاطر بأن يقطع تقطيعاً بالسكين. لذا جرى إلى فوق حيث المطبخ، ولحسن الحظ وجد الباب المؤدي إلى الحديقة مفتوحاً على مصراعيه.

ومنتزعاً زجاجة صوي طازجة عن رف المطبخ – بوثبة سريعة مراوغة– وصل الأوني إلى الخارج. وحين لمح خفين خشبيين بالقرب من الدرج، وضع قدميه اللتين لكل منهما ثلاثة أصابع فيهما حتى لا تشتم الكلاب أثره. ثم ركض إلى الحقول واختبأ وسط الأبقار حتى سمع رجالاً آتين يحمل كل منهم مذراة. وعلى الفور قفز الأوني على ظهر بقرة ممسكاً بقرنيها، فيما راحت البقرة المسكينة تركض بأقصى سرعتها إلى حظيرة الأبقار، آملة أن ينزاح عن ظهرها الوحش الغريب.

كانت زوجة مزارع الألبان في تلك اللحظة تفتح درج خزانتها لتبدل طاقيتها بأخرى جديدة. وحين سمعت بقرتها المفضلة تخور وتصرخ، تركت الدرج مفتوحاً وهرعت إلى نافذة المطبخ، من حيث يمكنها أن تتطلع، في أي لحظة، لترى إذا ما كانت هذه البقرة أو تلك مريضة أم في صحة جيدة، وتطمئن على العجول.

Twitter: @ketab_n

في هذه الأثناء، داخل بيت الغابة، كانت الأميرة قد هرعت في قميص نومها المطرز بعدما سمعت الخادمة تصرخ وبقية الخدم في هياج. وبدأت تسأل من وماذا، ولِمَ ولماذا. وكانت إجابات الخادمة، وكبير الخدم، والطباخة، والسائس، وبوتس كما كانوا يسمون ماسح الأحذية الذي يحمل المتاع ويقضي المشاوير، كانت كلها متباينة ومضحكة جداً.

رفعت الخادمة الأولى التي فتحت الدرج الذي خرج منه الأوني المقشة والمنفضة وكأنها على وشك النطق بقسم. وأعلنت: «كان قرداً، أو رباحاً[1]؛ إلا أنه بدا عليه أنه يتكلم الروسية، على ما أعتقد».

قال كبير الخدم: «لا، لقد سمعت المخلوق - وهو كبش أسود يجري على ساقيه الخلفيتين - وكان يتكلم الألمانية، أنا متأكد».

أما الطباخة وهي امرأة هولندية بدينة، فقد روت قصة طويلة وأقسمت - بشرفها - أنه كان كلباً أسود مثل البج الصيني[2]، ولا شعر له. هذا مع أنها لم تره إلا من ظهره، لكنها أكيدة أن المخلوق يتحدث بالإنجليزية، فقد سمعته يقول «صوي».

(1) نوع من القردة كبير الحجم قصير الذيل (م).
(2) كلب صيني صغير أنفطس الأنف (م).

Twitter: @ketab_n

شهد السائس بأمانة أنه كان أكثر خوفاً حينذاك من أن يتيقن من أي شيء، إلا أنه كاد يقسم بأن الكلمات التي نطق بها الأوني بدت لأذنيه سويدية. كان قد سمع ملاحين سويديين يتحدثون ذات مرة، وكانت ثرثرة الأوني أشبه بطريقتهم في الكلام.

ثم كان هناك بوتس – صبي المشاوير – الذي اعتقد أن المخلوق كان الشيطان، وعلى أي حال فقد أبدى استعداده للرهان على معاش أسبوع أنه تكلم الفرنسية.

بعدما تأكدت الأميرة من أن أحداً من خدمها لا يستطيع أن يتكلم أو يفهم لغة غير لغته، عنفتهم جميعاً بالهولندية وانتهت بقولها: «أنتم جميعاً من رؤوس الجبن»[1].

ثم رتبت الأشياء الرائعة الآتية من الشرق الأقصى بيديها الرقيقتين حتى فاحت عطور الشرق في بيت الغابة وسرعان ما أصبح شهيراً في جميع أنحاء أوروبا. وحتى على أيام أحفادها – حينما صاروا يتناوبون على اللعب اللطيفة الآتية من بلاد فوجي[2] والزهور والحرير والشاي، وبراعم الكرز وأشجار الكافور – كانت مقتنياتها لا تزال ليس أول مجموعة مقتنيات يابانية في أوروبا كلها فحسب، ولكن أروعها أيضاً.

(1) الحمقى (م).
(2) فوجي أشهر جبال اليابان وأعلاها، غرب طوكيو (م).

Twitter: @ketab_n

في أثناء ذلك راح الأوني في البلاد الغريبة يقع في مشكلة بعد أخرى. إذ أخذ الرجال يطاردونه بالهراوات، إلا أنه كان قد رأى أمثالهم في بلاده فلم يخفه المشهد. وكان باستطاعته أن يتفوق على أي رجل في العدو والقفز والتسلق. وقد شارفت فرو المزارع – أو، بالهولندية، زوجته –على الإغماء حين قفز الأوني أولاً إلى غرفتها ثم إلى درج خزانتها. وبينما يفعل اصطدمت زجاجة الصوي التي يمسك بها في كفه ذي الأصابع الثلاث بالخشب وانسكب السائل الداكن على الأربطة وطواقي النوم والياقات التي عولجت بعد غسلها بالنشاء. وفسدت جميع أغطية رأسها المزركشة.

«دوندر إن بليكسم» (الرعد والبرد)، هكذا صاحت الفرو على سبيل الغضب: «ها هو أحلى غطاء رأس لي، ذلك الذي كلفني عشرين جلدراً، قد فسد تماماً». وبشجاعة ركضت لتحضر المقشة.

لمح الأوني ما ظنه ثقباً كبيراً في الحائط فجرى إلى داخله وحين رأى السماء الزرقاء فوقه، بدأ يتسلق. إنها مدخنة، وبما أنه ليس هناك مداخن في اليابان فلم يكن يعرف ماذا يكون ذلك الممر. كاد يعميه ويخنقه السخام فانزلق إلى أسفل وأسرع بالخروج من حيث دخل – وإذا برأسه يكاد ينفجر من الضربة التي ناولته إياها

Twitter: @ketab_n

زوجة المزارع بالمقشة. لقد ظنت غريمها جدياً مجنوناً فساقته إلى قبو المؤن وأغلقت الباب بالرتاج.

بعد ساعة، كان المزارع قد جاء بمسدس وذخّره. ثم اصطحب أجيره واقتربا من الباب، ليفتحه أحدهما ويطلق الآخر النار على ما يوجد خلفه. وكانا يتوقعان وحشاً مخيفاً.

لكن لا! فلم يكن قد تحمل الأوني المسكين الوحيد التائق إلى وطنه كل هذه الخبرة بأشياء غير معروفة في اليابان، بما في ذلك المداخن، حتى وإن لم تكن قد استغرقت سوى ساعة. وإذا به يقعي ميتاً على الأرض، وأصابعه الثلاث تقبض على خطمه وتسده. كل ذلك الجبن والزوركول (كما يسمي الهولنديون الساوركراوت)، كحول الشنابس وخليط البراندي والبيض المسمى آدفوكاد، حليب البقر الطازج والرائب، الأحذية الخشبية، الياقات والتخاريم وأطواق الرقبة المكشكشة، إضافة إلى الروائح المتباينة، كانت قد أربكت رأس الأوني ومعدته. فقد ارتعب أولاً من رؤية كل هذه الأشياء غير المألوفة، فأصيب بصدمة عصبية، وأتت عليه الروائح التي لم تكن قد عذبت خطمه روائح مثلها من قبل.

جيء بحكماء القرية ليتحروا الأمر، وبعد استقدام الشهود واستجوابهم ودراسة المخلوق الغريب، كان حكمهم أنه ليس

Twitter: @ketab_n

إلا «هيرسن سكيم» - أو شبح المخ - فإنهم إنما يعنون بذلك أنه لا يوجد مثل هذا الحيوان (إلا في عقول جماعة من الناس يتبدى لهم حقيقياً).

غير أن رجلاً من دلفت[1] كان يعمل «نيكربوكر»[2] أو فخاراً مختصاً بالأشكال الصلصالية، تسول جسد الأوني. فقد أراد أن يجعله نموذجاً لجارجويل جديد لأسقف الكنائس: والجارجويل هو تمثال رأس وحش مخيف أو حيوان عجيب يثبت في أطراف المباني ويستخدم لصرف مياه الأمطار؛ وقد أراد ذلك الرجل أن يجعله على شكل الأوني. منحوتاً من الحجر أو مصنوعاً من ذلك الفخار الذي يتخذ لوناً أحمر ويسمى التراكوتا، اكتسب ذلك النوع الجديد من الوحوش شعبية كبيرة. وقد سماه النيكربوكر على اسم شيطان جديد كانت صلوات القديسين قد طردته، وسرعان ما كون ثروة من بيعه إلى النحاتين والمعماريين. وهكذا عوضاً عن أوني واحد حقيقي مات ودفن في التربة الهولندية، بات هناك الآلاف من الأوني المصنوعين من الصلصال أو الحجر في أرض هولندا حيث تحدث على الدوام أشياء أطرف من تلك التي تحدث في أرض الأحلام.

(1) مدينة في جنوب هولندا بين روتردام والهاج (م).
(2) حرفياً: خباز قطع الصلصال (م).

Twitter: @ketab_n

عندما استخدم الأوني الياباني الميت نموذجاً لمزراب مياه أصبح لألف عام أفيد بكثير مما كان يوماً في الأرض التي ما زال يعيش فيها أهله ويمارسون مقالبهم.

Twitter: @ketab_n

أسطورة الحذاء الخشبي

منذ سنين طويلة، أكثر من أن تعدها الروزنامة أو تحسبها الساعة، نزل ملايين الجن الأخيار من الشمس ودخلوا إلى الأرض. وهناك حولوا أنفسهم إلى جذور وأوراق، فأصبحوا أشجاراً. وكان هناك من تلك الأشجار أنواع عديدة غطت الأرض بأكملها، إلا أن الصنوبر والبتولا، والدردار والبلوط، كانت أهم الأنواع التي غطت هولندا. وحملت الجنيات اللائي يعشن في الأشجار اسم عذارى الطحلب، أو كانت تسمى كل منهن «ترينتي»، أو كاتي وهو اسم الدلال الذي تكنى به البنات اللائي يحملن اسم كاثرين في هولندا.

كانت شجرة البلوط هي المفضلة، ذلك أن الناس كانوا يعيشون حينذاك على ثمارها، يأكلونه مشوياً أو مسلوقاً أو مهروساً أو يصنعون منه عصيدة تعجن وتخبز ليصنع منها شيء كالخبز. وبدأ الرجال يدبغون الجلد بلحاء البلوط ومن خشبها يصنعون المراكب والبيوت. وتحت أغصانها، بالقرب من

Twitter: @ketab_n

الجذع، كان الناس يرقدون مرضاهم أملاً في العون من الآلهة. وتحت فروع البلوط أيضاً صار المقاتلون يحلفون اليمين بالولاء لسادتهم، والنساء يقطعن عهودهن والزوجات يشبكن أيديهن في دائرة تلتف حول جذع الشجرة أملاً في أن ينجبن أطفالاً على درجة عالية من الجمال. وهناك، عالياً وسط الاغصان المورقة كان ينام الرضع قبل أن يعثر عليهم الأطفال الآخرون في المهود. ولكي يصير الأطفال الصغار أقوياء أصحاء، كانت أمهاتهم يمررنهم خلال الجذوع الخضراء المقسومة أو عبر شجرة صغيرة. والأروع من كل ذلك قدرة البلوط كدواء للأرض نفسها على الشفاء. فأحياناً ما كانت تعاني الأرض الجديدة من مرض يسمى «فال» (أو انخساف الأرض). وحين تمرض الأرض بالفال فهي تغور عميقاً. وحينئذ يغرق الناس والبيوت والكنائس والحظائر والماشية حتى تغيب عن النظر فتختفي إلى الأبد في سيل المياه.

إلا أن البلوط، بجذوره القوية، كان يبقي التربة متماسكة. فالجميع يعرف جيداً قصص المدن التي انهارت تحت الأمواج، وغابة القصب الشهيرة التي كانت تغطي مئة قرية واختفت عن بكرة أبيها في ليلة واحدة.

Twitter: @ketab_n

واعتاد العشاق أن يلتقوا تحت أشجار البتولا ليتبادلوا عهود الغرام، وكثيراً ما حفرت على لحائها المالس صورة قلبين متحدين في قلب. في الصيف، كانت الغابة توفر الفيء، وفي الشتاء دفئاً من حطبها المشتعل. في الربيع كانت أوراق الشجر الجديدة تبدو أعجوبة في الجمال، وفي الخريف كانت الخنازير تسمن على الجوز وغيره من ثمر البلوط الذي يسقط على الأرض.

لذلك لآلاف السنوات، حين جعل الناس بيوتهم في الغابة ولم يشعروا بالحاجة لغيرها، كانت الأشجار مقدسة.

لكن مع مرور الوقت، حين انتشرت الأبقار في البلاد وتكاثر الخرفان والخيول، نشأت الحاجة إلى المزيد من الأراضي المفتوحة للرعي. زرعت أشجار الفاكهة تحمل التفاح والإجاص، الخوخ والكرز، كما زرع الحشيش والقمح والجاودار والشعير. وحينئذ، بدلاً من الغابات المعتمة، أصبح الناس يحبون الحدائق والبساتين المفتوحة على الشمس. ومع ذلك، ظل الشعب يفتقر إلى المدنية إلى أقصى حد، ولم يكن هناك ما تنتعله الأقدام الحافية سوى قطع خشنة من الجلد المتحجر تربط عبر فتحات الأصابع، إلا أن أكثرهم كانوا يتجولون حفاة.

Twitter: @ketab_n

كان من الضرورة أن تقطّع الغابات لتفسح مجالاً، وأعمل الرجال فؤوسهم في «هولت لاند» (أرض الحطب) التي زالت بضعة أعوام. وحينئذ حلت «هو لاند»[1] الجديدة، بشعبها وبيوتها ذات الأسقف الحمراء، بمداخنها وطواحينها، بسدودها ولقالقها محل هولت لاند القديمة الغنية بالأشجار.

وفي تلك الأيام عاش رجل صالح، نجار بالغ المهارة في استخدام أدواته، أحب البلوط لدرجة أنه اتخذ لنفسه وأبنائه من بعده اسم «آيك» ويعني بالهولندية البلوط. ويوم نادى أصغر بناته، في حضور الجيران والأصدقاء، لتضع حجر أساس بيته الجديد - وهو تقليد هولندي جميل - أعطاها، أمام الجميع، اسم نيلتي فان آيك.

ظل النجار ينتحب على فقدان الغابات حتى إنه كان يبكي خائفاً من ألا يبقى مع مرور الوقت ولا شجرة بلوط واحدة في البلاد. وإضافة إلى ذلك، كان يقلقه أن الأراضي الجديدة التي أقيمت عن طريق دفع المحيط إلى الخلف وبناء السدود قد تسقط مرة أخرى وتؤول إلى الأسماك. ففي هذه الحالة، سيغرق الجميع، الرضع وأمهاتهم، الرجال والنساء، الخيول والماشية. فقد تسرع أهل هولندا قليلاً - أو هكذا كان يفكر - في الظفر بفدادينهم من البحر.

(1) الإشارة هنا إلى المقاطعة وليس إلى البلاد المنخفضة ككل (م).

Twitter: @ketab_n

ذات يوم وهو جالس على عتبته يتفكر آسفاً، ظهرت عذراء طحلب وعفريتة من سكان الشجر يطفران باتجاهه ويد الواحدة في يد الأخرى. اقتربتا وقالتا له إن البلوطة التي ينحدر منها عندها له رسالة، ثم ضحكتا وركضتا هاربتين. وذهب فان آيك - كما أصبح اسم عائلته- إلى داخل الغابة، ووقف تحت شجرة البلوط العجوز المجيدة التي عشقها آباؤه وما كان ليسمح لأحد بقطعها.

حين نظر إلى أعلى خشخشت أوراقها، وبدا أن غصناً كبيراً يتمايل مقترباً منه، ثم همس في أذنه: «لا تحزن، فسوف يرى نسلك حتى بعد أجيال عديدة من الآن أشياء أعظم مما شهدت. سنموت أنا وأخواتي، لكن ضوء الشمس سينتشر فوق الأرض ويجففها، وساعتها سيأتي من باطن الأرض طعام أوفر وأحسن من الجوز الذي يسقطه الشجر. حيث تمتد الحقول الخضراء الآن، وحيث تنمو المدن مكان الغابات، سنعود إلى الحياة من جديد ولكن على هيئة أخرى. وحين تكونون في أشد الحاجة إلى ذلك، سنمدكم - أنت وأبناؤك وأبناء أبنائك - بالدفئ والراحة والنار والضوء والثراء. ولا تخف على الأرض من أن تنخسف، فستقف كل شجرات البلوط الباقية،

Twitter: @ketab_n

وشجرات البتولا والصنوبر والدردار من أجلكم. سنسند بيوتكم حتى لا تغرق في الطين، وسوف تسيرون وتركضون فوق رؤوسنا. بحق الجذور التي تربطنا في الأرض، هذا ما سنفعله. فصدق ما نقوله لك وكن سعيداً. سننقلب رأساً على عقب من أجلكم».

قال فان آيك: «لا أفهم كيف يمكن أن تحدث كل هذه الأشياء».

«لا تخف، فإن وعدي قائم».

وخشخشت أوراق الغصن لحظة أخرى ثم حل سكون كامل حتى عادت عذراء الطحلب وترينتي - ساكنة الشجر - وظهرتا له وهما يتقافزتان مبتهجتين.

«سوف نساعدك ونطلب من أصدقائنا العفاريت يحذون حذونا. والآن، فلتأخذ بعض خشب البلوط وتقطع منه قطعتين بالمنشار، كل منهما بطول قدم. تأكد من أنهما جفتا جيداً، ثم ضعهما على طاولة المطبخ الليلة، حين تأوي إلى الفراش». وبعدما انتهيتا من قول ذلك، وهما تنظران إلى واحدتهما الأخرى وتضحكان تماماً كما تفعل البنات، اختفيتا.

Twitter: @ketab_n

متفكراً فيما قد يعنيه كل هذا، ذهب فان آيك إلى سقيفة الخشب الخاصة به ونشر ما يحتاج إليه من خشب البلوط. في الليل، بعدما رفعت زوجته مائدة العشاء، وضع القطعتين – كل منهما بطول قدم – في مكانهما.

عندما استيقظ في الصباح، تذكر منامه وقبل أن يرتدي ملابسه هرع إلى المطبخ. هناك، على الطاولة، وجد حذاء خشبياً دقيق الصنع. لم ير أثراً لمعدات النجارة أو نشارة الخشب، لكن الخشب النظيف ورائحته الطيبة أسعداه. وعندما نظر من جديد إلى الحذاء وجده أملس إلى أقصى حد، من الداخل والخارج على السواء. كان في أسفل كل فردة نعل وكل فردة مدببة بلطف عند أصابع القدم وكانت بشكل عام تدعو القدم إلى انتعالها. جرب الحذاء فوجده على مقاس قدميه تماماً. فجرب المشي على أرضية المطبخ التي كانت زوجته تحفها وتلمعها بانتظام، ثم تنثر عليها رملاً أبيض نظيفاً تعلم طبقاته تموجات المقشة. لكن بالنسبة لفان آيك، كان كأنه يمشي على الجليد. فبعدما انزلق واستعاد توازنه، كأنما على حبل مشدود، وبعدما كاد يكسر أنفه بالحائط، خلع الحذاء الخشبي ولم يعد يلبسه داخل البيت.

Twitter: @ketab_n

لكنه عندما ذهب إلى الخارج، وجد حذاءه الجديد خفيفاً لطيفاً على القدمين واستسهل المشي فيه، فلم يكن الأمر - إلى هذا الحد - أشبه بالتزلج، كما كان في المطبخ.

ليلاً، في أحلامه، رأى عفريتين يدخلان إلى المطبخ من خلال الشباك. كان أحدهما - وهو كابوتر أسمر - يحمل صندوق أدوات نجارة. أما الثاني - وهو عفريت أشقر الوجه - فقد بدا أنه يقوده. وعلى الفور أخرج الأسمر منشاره وبلطته ومثقابه، والسكين التي تشبه إزميلاً وفأرة التنعيم. في البداية، بدا أن العفريتين يتشاجران حول أي منهما يجب أن يرأس الآخر. ثم ركزا على عملهما في هدوء. أخذ الأسمر الخشب وشكله من الخارج، ثم فرغ من داخله فردتي حذاء قام الأشقر يصلقهما وتنعيمهما. ثم وضع أحدهما قدميه في الحذاء وحاول أن يرقص، إلا أنه انزلق على الأرضية الملساء فتسطح أنفه غير أن الآخر شد الأنف ليعدله فعاد كل شيء إلى طبيعته. تراقصا من جديد في الحذاء الخشبي، ثم خلعاه وقفزا من الشباك وركضا هاربين.

عندما انتعل فان آيك حذاءه الخشبي، اكتشف أن هذا النوع من أغطية الأقدام أنسب ما يكون في الحقول وفي الطين، على التربة الناعمة وفي الأماكن الموحلة. فالأحذية الخشبية لا تغوص

Twitter: @ketab_n

في الوحل وتبقي القدمين مرتاحتين حتى بعد ساعات من العمل الشاق. فهي لا تجهد الأقدام بالمشي في الطين، وتحجز المياه خارجها بشكل أفضل بكثير مما يمكن أن يفعل الجلد.

حين رأت فرو فان آيك وأولاده مبلغ سعادته أراد كل منهم حذاء مثله. وسألوه ماذا يسمي هذا النوع من الأحذية.

أجاب: «كلومبن»: أخفاف. وهكذا ظل اسمها حتى اليوم.

قال: «سوف أجني ثروة من هذا، سأفتح كلومب–وينكل (محلاً لبيع الأخفاف) على الفور».

وهكذا، قصد حداد القرية، وطلب منه أن يصنع له على سندانه مجموعة أدوات مطابقة لتلك التي استخدمها العفريت الأسمر والأشقر كما رآها في منامه. ثم علق لافتة بعبارة «قوالب خشب كأحذية». صار يصنع الأخفاف للأشخاص الخارجين لتوهم من الحضانة، للأولاد والبنات، للرجال والنساء الكبار، ولكل من يمشي في الخارج، في الشوارع أو الحقول.

وسرعان ما أصبحت الأخفاف موضة رائجة في بطول البلاد وعرضها. كان من الأدب، عند الدخول إلى بيت، أن

Twitter: @ketab_n

تخلع حذاءك الخشبي وتتركه عند الباب. وحتى في البلدات والمدن، أصبحت السيدات يرتدين الأخفاف الخشبية خاصة أثناء المشي أو العمل في الحديقة. أطلقت الأخفاف أيضاً موضة الجوارب الناعمة الدافئة، والجوارب الطويلة المصنوعة من صوف الخرفان. وسرعان ما صارت مليون إبرة تعمل وصانعات الأخفاف يثبتن حشوات طرية بين خشب الحذاء من ناحية وباطن القدم وأصابعها من ناحية أخرى. كانت النساء يخيطن حتى في أثناء السير إلى السوق أو الثرثرة في الشوارع. وصار في كل قرية كلومب–وينكل أو محل نجار الأحذية أو أكثر.

وحين أثرى فان آيك بما يفوق أحلامه، جاءته رؤيا ليلية أخرى مبهجة. في اليوم التالي كان وجهه مبتسماً. وكان كل من يلقاه في الشارع يحييه ويسأل، بنبرة الجار يطمئن على جاره:

«مانهيير بلايمودج (صباح الخير أيها السيد مبتهج). كيف تبحر اليوم؟».

فهكذا يتكلم الهولنديون – لا يقولون «ماذا أنت فاعل اليوم» وإنما، في بلادهم المائية، يقال «كيف تبحر» أو «هو جات هيت أو آل» (كيف تسير أحوالك الآن؟).

Twitter: @ketab_n

حينئذ حكى فان آيك منامه. وكان الآتي: من جديد جاءته عذراء الطحلب مع ترينتي – عفريتة الخشب – ورقصتا. كانتا نشيطتين وسعيدتين.

«ماذا الآن؟» هكذا سأل الحالم زائرتيه مبتسماً.

وما كاد يخرج السؤال من فمه حتى دخل عفريت أسمر متسخ من عمل الحدادة، وكان يمسك في إحدى يديه علبة أدوات، وفي الأخرى آلة عجيبة الشكل هي عبارة عن كتلة كبيرة من الحديد محاطة بهيكل بحبال ترفعها إلى أعلى وتتركها تسقط محدثة صوتاً مكتوماً.

«ما هذه؟» سأل فان آيك.

«إنها هاي (مدقة)» هكذا قال الكابوتر، موضحاً له كيف يستخدمها. وقالت العذراء: «إذا ما سألك الرجال في الشارع غداً <كيف تبحر>، اضحك عليهم» ثم ضحكت بنفسها.

«نعم، والآن يمكنك أن تخبر الناس كيف تبني مدناً فيها كنائس عظيمة وأبراج عالية وبيوت مثل تلك الموجودة في البلاد الأخرى. خذ الأشجار وانزع غصونها، وابر رؤوسها،

Twitter: @ketab_n

ثم اقلبها ودقها عميقاً في الأرض. ألم تعدك شجرة البلوط العجوز أن الأشجار ستنقلب على رؤوسها من أجلك؟ ألم تقل إنك ستمشي فوقها؟».

إذ ذاك كان فان آيك قد سأل العديد من الأسئلة وأبقى العفاريت مدة طويلة حتى صارت العذراء تتطلع من النافذة. وحين رأوا بوادر النهار، طاروا بعيداً هي وترينتي والكبوترر حتى لا يحولهم الشروق إلى حجر.

«سأصنع ثروة أخرى من هذا الأمر كذلك» قال الرجل السعيد الذي حياه الناس في الصباح التالي بعبارة «بليد شاب» (السيد فرحان).

ومن فوره أنشأ فان آيك مصنعاً لإنتاج المدقات. كان يبعث بالناس إلى الغابات ليختاروا الأشجار الطويلة المستوية، ثم يقطع غصونها، ثم يشحذ طرفاً منها حتى يصير مدبباً (كالقلم الرصاص المبري). وكانت هذه الجذوع تدفع بالمدق إلى أسفل، بعيداً وعميقاً في الأرض. فيقوم أساس قوي كالحجر في التربة الطرية الإسفنجية، وترتفع البيوت متقنة البناء بالآلاف وتظل الأبراج ثابتة أثناء العاصفة.

Twitter: @ketab_n

لم يكن لهولندا القديمة تربة خصبة مثل فرنسا، ولا قطعان من الخرفان التي تنتج الصوف، مثل إنجلترا، ولا جيوش من النساجين مثل البلاد البلجيكية. لكن سرعان ما قامت مدن كبيرة، بقصور ودور بلدية فخمة. وبمثل ارتفاع كاتدرائيات وأبراج البلاد الأخرى في السماء – تلك كانت لها أسس من حجر – ارتفعت كنائس هولندا القديمة المبنية بالطوب في الهواء. ففوق أشجار الغابة الغائرة عميقاً في الرمل والصلصال، بنيت السدود والقناطر وأبقت المحيط في الخارج. وهكذا بدلاً من ألفي ميل مربع أصبح في المملكة على مر السنين اثني عشر ألف ميل مربع غنية بالحقول الخضراء الخاصة بالرعي. وبعدئذ – بالنسبة لكل الأولاد والبنات الذين يسافرون في بلاد العادات الطريفة هذه – أصبحت هولندا أرض البهجة.

Twitter: @ketab_n

أسد في ذيله مروحة

ذات مرة ذهب بعض الصيادين الهولنديين إلى أفريقيا أملاً في اصطياد عائلة كاملة من الأسود. وقد نجحوا فعلاً في ذلك، بمساعدة فريق من كلاب الصيد وجماعة من أهل أفريقيا نجحوا من خلال عصيهم بدفع أسد كبير مع زوجته وأربعة أشبال إلى قلب دائرة حفروا في وسطها شركاً غطوه بالأغصان والحشيش، وفي قلب هذه الحفرة سقطت عائلة الأسود. حينئذ استعانوا بالشباك والحبال ليخرجوا الوحشين الضخمين وأشبالهما، ثم وضعوا العائلة في أقفاص وجاءوا بها إلى هولندا. لم يكن الأشبال الأربعة أكبر حجماً من كلاب البج، وكانت لطيفة الشكل غير مؤذية كجراء القطط. فسعد البحارة باللعب معها كثيراً.

كانت الأسود – حتى قبل أن يرى أهل هولندا أياً منها، تتمتع بسمعة كبيرة بالقوة والشجاعة والكرامة والبأس. وكان يعتقد أن لها خصال الملوك التي يحب أن يمتلكها الصبيان. أطلق الكثير من الآباء على أبنائهم اسم ليو، وهي كلمة أسد باللاتينية. أما الآباء

Twitter: @ketab_n

الهولنديون فكانوا يعطون أولادهم الرضع - عند تعميدهم - اسم ليوف، وهي اللفظة التي يسمون بها ملك الغابة.

قبل أن يُجلب الأسود من البلاد الحارة إلى البلاد شديدة البرد، كان الدب والذئب يتمتعان بالقدر الأكبر من الإجلال لأنهما - إضافة إلى امتلاكهما الكثير من الفرو ومخالب هائلة وأنياب مرعبة - يتميزان بشجاعتهما. ولهذه الأسباب كان الكثير من الناس من العائلات المالكة والعامة على حد سواء قد اتخذوا من الدب والذئب أسماء لأبنائهم الذين يأملون فيهم الخير.

ولكن الأسد الذكر كان باستطاعته أن يصدر جلبة أعلى من الذئاب، فهو يزأر في حين لا يسع الأخيرة إلا النباح. وكان له عرف[1] كثيف الشعر وذيل طويل. كما أن للأسد ما يشبه الظفر في نهاية ذيله لكي يحك نفسه به ويمسد شعره عندما يتجعد. وعندما يغضب، يخرج الوحش الجبار لسانه الأحمر المتقوّس كمقبض المضخة ويكاد طوله يبلغ نصف ياردة.

فسمي الأسد ملك الغابة، واتخذ منه الملوك والفرسان شعاراً. وصارت صور المخلوق الضخم تنقش على راياتهم ودروعهم وعتادهم الحربي. وكانوا أحياناً يلصقون أسداً من

(1) أو اللبدة: الشعر الكثيف المحيط برقبة الأسد (م).

Twitter: @ketab_n

الذهب أو النحاس الأصفر على خوذاتهم. ولم يكن مسموحاً للفارس أن يضع على درعه أكثر من رسم أسد واحد، بينما كان من حق الملوك أن يضعوا ثلاثة أو أربعة أو حتى مجموعة كاملة من الحيوانات آكلة اللحوم. وقد رسمت هذه الأسود أو نحتت في شتى الأوضاع، وهي تركض أو تتهادى ماشية أو تقف ناظرة إلى الأمام أو الخلف.

وكان هناك فنان هولندي لاحظ مدى غرابة الملوك، وكيف أنهم يحبون أن يضعوا على شاراتهم شتى أنواع الوحوش والطيور الجارحة ومخلوقات البحر المفترسة. فهناك النسر ذو الرأسين، والخنزير البري ذو النابين، والثعبان ذو المخلب، والصقر، والجرفين (وهو حيوان خرافي نصفه نسر ونصفه أسد)، والتنين المجنح المسمى ويفرن، والأسد، والتنين، الحيوان الذي نصفه أسد ونصفه تنين، إضافة إلى خيول ذوي أجنحة وعرائس بحر ذوات ذيول محرفشة وحتى أفراس ليل تنطلق طائرة في الظلام. وسط هذه التشكيلة المضحكة من الحيوانات والطيور والأسماك، تساءل البعض لم ليس هنالك بقرة بذيلين أو قطة بأنفين أو كبش بأربعة قرون، ولماذا لا يوجد مخلوق نصفه لحم عجل ونصفه ضأن. انتبه الفنان إلى أن الملوك لا يكترثون

Twitter: @ketab_n

كثيراً لأمر المخلوقات الأليفة الهادئة المسالمة المفيدة، كالثيران والخيول، ولكنه يهتمون فحسب بالوحوش التي تصطاد وتقتل المخلوقات الأقل قدرة على الدفاع عن نفسها.

وبما أن ملوك البلاد لابد لهم من أسد، فقد قرر الفنان أن يصنع واحداً جديداً، متيقناً من أنها ستكون مهمة ممتعة على أي حال.

وهكذا كما يختار الرسام أو النحات رجالاً ونساءً يجلسهم أمامه ليتمثل في ملامحهم الأبطال والبطلات، وتماماً كما يصور الأولاد والبنات الممتلئين كملائكة، كذلك اتخذ هذا الهولندي من الأشبال وأبيهم الوحش الكاسر موديلات لشعارات النبلاء والملوك.

يا للأسود المسكينة! لم تكن على علم بذلك لكنها سرعان ما اكتشفت كم هو ممل أن تقوم بدور الموديل. فلابد لها من إبقاء كفوفها ذات البراثن مرفوعة أو مخفوضة، بحسب ما يطلب إليها فعله. ولابد لها من الوقوف والركوع في أوضاع متعبة، وأن تمدّ ألسنتها إلى آخرها، وأن تمشي على قوائمها الخلفية، أن تدير رقابها إلى هذه الناحية أو تلك، أن تنظر إلى الأمام أو الخلف، وبأشكال عديدة مضجرة، منفذة فقط ما تؤمر به. ولابد لها أيضاً من استخدام ذيولها بأشكال لا حصر لها، سواء ملفوفة

Twitter: @ketab_n

حول الأعمدة وحزم القش أو ممدودة من بين قضبان القفص أو موضوعة بين أرجلها وهي تركض بعيداً أو تدور في الهواء وهي تزأر أو منتصبة إلى أعلى وهي تشبّ.

وصل الأمر في بعض الحالات أن تضطر الأسود إلى وضع النظارات الطبية وتمثيل أنها تقرأ ممسكة في براثنها كتباً ولفافات، أو شعار المدينة أو لافتة متجر. لم يكن عليها أن تمثل دور رفيقة دانيال في عرين الأسود البابلي[1] فحسب - فهذا الأمر يعدّ عادياً - إنما اضطرت أيضاً إلى مرافقة القديس مرقص بل وأن تقف على قوائمها الخلفية فوق عمود عال متحاشية الوقوع.

باختصار، كان هذا الفنان ينتمي إلى مدرسة شعارات النبالة، وقد أدخل ملك الغابة إلى الرايات الهولندية.

لهذا، منذ ذلك اليوم، تحولت حياة عائلة الأسود الأفريقية، بداية من الأب وحتى أصغر الأشبال، إلى حياة مفعمة بالشقاء. كان الوضع المفضّل عند الأسد الأب في موطنه الأصلي في الأدغال وحتى داخل القفص، هو الاضطجاع بتكاسل وبراثنه مرتخية، والبقاء نصف نائم طوال النهار،

(1) أحد أنبياء اليهود المذكور في كتاب دانيال في العهد القديم، وقد حبسه الفرس في وكر للأسود الجائعة عقاباً على إخلاصه لله فلم يتعرض لأذى (م).

Twitter: @ketab_n

حتى يخرج للصيد عند حلول الظلام. فوجد نفسه الآن مضطراً إلى الوقوف طوال اليوم. ممتثلاً لاحتياجات الفنان، حتى أجهدت قائمتاه الأماميتان وكفاه من الوقوف طويلاً. وكان شعر جسده قد بدأ يتهرّأ بسبب اضطراره إلى الجلوس طويلاً على الأرضية الخشبية الجامدة. وكان مضطراً إلى فعل هذا كله وإلا نخز بمسعر محمرّ من فرط سخونته. فقد كان هناك أتون وقوده الفحم وعدد من المناصب[1] بالقرب من المرسم، يعتني بها فتى هولندي. أو ربما تُحرم عائلة الأسود كلها من تناول الغداء حتى يطيع الأب الأوامر ويفعل ما يؤمر به، وإن كان كثيراً ما يزمجر أو يزأر في تلك الأثناء.

في البداية، على ليو أن يشب على قائمتيه الخلفيتين والنظر أمامه. ولم تكن هذه الوضعية صعبة عليه، ففي الأدغال التي ولد فيها كثيراً ما كان يستخدمها للحصول على فطور من لحم الغزال لزوجته وعائلته. ولكن يا لهول الوقوف لنصف ساعة كاملة على قائمتين بينما هو عنده أربع ويود لو يستخدمها جميعاً! كان هذا صعباً. ومع ذلك كان هذا الوضع - وضع «الأسد يشب» - هو المفضل على الإطلاق لدى الملوك.

(1) المنصب: مسند للحطب المشتعل (م).

Twitter: @ketab_n

إلا أن أعمام الملك وأبناء إخوته وبناتهم، إضافة إلى أبناء عمومته وأصهاره عموماً، أراد كل واحد منهم رسم أسد على قرطاسيته ومناديله إضافة إلى راياته ودروعه. الأمر الذي جعل حياة الأسد الأب لا تطاق – والمسعر الملتهب دائماً نصب عينيه – إذ بات مضطراً إلى اتخاذ تشكيلة كبيرة من الوضعيات. كان الفنان يناديه كما يفعل السائس مع الحصان الذي يجر العربة: «شي»، «حا»، «يس» إلخ، فعندما يصيح على هذا النحو، كان على الأسد أن يطيع.

وسرعان ما انتشرت الأسود على شعارات النبالة والرايات والدروع وعلى شارات البلاد وتيجان العائلات المالكة وأختام المدن وأصبحت موضة البلاد التي باتت مولعة كلها بالأسود. أضحت هناك أسود محفورة في الحجر والخشب والحديد، على كل لون وشكل ممكن وغير ممكن. واتخذ بعضها وضعية القيام بشتى الحيل والألعاب وكأنها تنتمي إلى سيرك أو كأنها تستمتع في قضاء إجازة. وفي بعض الصور بدت تضحك مقهقة وتمدّ ألسنتها، وتمسك لافتات الفنادق أو تزين حزم البضائع أو البراميل، كما تزين لافتات المتاجر التي يسعد الصبيان والبنات بالنظر إليها.

Twitter: @ketab_n

لم يكن هناك طلب كبير على السيدة ليو لأن السيد ليو لا يقبل أن تظهر زوجته في الأماكن العامة فكانت مشغولة برعاية الأشبال. كان على الأب الأسد أن يعمل في أكثر من وظيفة حتى يكبر الأشبال. إلا أنه قبل أن يرى صغاره وقد بلغوا سن النضج، كان قد توفي وحنط لكي يوضع في المتحف. وإليكم كيف وصل أول ملوك الغابة في هولندا إلى نهايته قبل الأوان.

لم يكتف الفنان باتخاذ السيد ليو شتى الوضعيات ولكنه أراده أن يبدو «أسطورياً» كالوحوش الخرافية التي تعد مزيجاً من أي مخلوق وآخر أو من كل المخلوقات فيكون لها زعانف أو فرو أو ريش أو حرافش، كالتنين والجرفين. وذات يوم، حاول أن يصنع من أسد حي مخلوقاً خيالياً كل جسده شعر معقوص. فربط الأسد إلى الأرض وأعمل المعقصة - وهي مكواة معدة لعقص الشعر وتمويجه - في عرفه حتى بدا مثل ثور بابل ملتح[1]. ثم مسد خط الشعر الطويل الواقع على بطن ليو من الأمام ولفه بقصاصات عقص أو البُكَل كما يسميها بعضهم. وبالطريقة نفسها عالج الشعر الذي ينمو على قوائمه الأربع. وأخيراً تناول فرشاة شعر ومسد الخصلة الكثيفة التي ينتهي بها ذيل الحيوان الطويل. ثم أنجز صورة له وهو على هذه الحال، ممتلئاً بالعقص وخصل الشعر التي تشبه الحلقات وكأنه رجل غندور شديد الاعتناء بمظهره.

(1) الثور الملتحي يرجع منشأه إلى الأساطير السومرية (م).

Twitter: @ketab_n

بدا الأب في عائلة الأسود، حينذاك، وكأنه خرج لتوه من صالون حلاقة. وكان مظهره ملفتاً للنظر لدرجة أن السيدة ليو بدأت تلعق أشبالها على الفور إلى أن لمع فروها لكي تبدو مثل أبيها. ومستعملة لسانها كمشط، بدأت تجعل جلدها هي أملس وبراقاً، ثم أكملت مهمتها باستخدام الظفر الذي ينتهي به ذيلها لوضع اللمسات الأخيرة. كانت هذه إجمالاً أكثر عائلات الأسود عقصاً في التاريخ، وبدا الأب ليو مضحكاً ومعقوصاً أكثر من أي أسد في التاريخ. فقد كان في الحقيقة كله معقوصاً من الرأس إلى الذيل.

لكن على الرغم من ذلك كله لم يبد الفنان مقتنعاً بعد بما أنجزه. وأراد لدائرة من الشعر الطويل أن تنمو كالمروحة وسط ذيل الأسد الطويل. فعلى أسده ذي العقص أن يفوق كل الخليقة، وبهذا المبدأ واظب على العمل.

كانت ابنة الفنان الشابة تعاني من بعض التعب في حلقها فوصف لها الطبيب دواء محذراً إياها من أن تسكب ولو نقطة منه على وجهها أو ملابسها.

إلا أن الأم أو الفتاة نفسها أهملت التعليمات الخاصة بتناول الجرعة. ففي لحظة تناولها ركضت القطة عبر الغرفة تطارد الفأر

Twitter: @ketab_n

وحين لامست الملعقة فم الفتاة تماماً، علقت بوسي بتنورتها فانسكب أغلب الدواء على شفتها العليا وطاول رشاشه ذقنها وجانبي فمها. لقد ضحكت الفتاة من اندلاق الدواء وماسحة السائل لم تشغل بالها كثيراً في الأمر.

إلا أنها ذهلت بعد أسبوع بالتمام. فعند استيقاظها نظرت في المرآة فارتدّت إلى الخلف مصدومة، إذ رأت أنه قد نبت لها شارب ولحية. صحيح أنهما ناعمان أزغبان، لكنهما أيضاً سوداوان، وإلى أن جاء الحلاق وأزال الزوائد، ظلت ملتحية. لكن الغريب أنها بعد زيارة أخرى أو اثنتين من الحلاق، لم يعد الشعر ينمو على وجهها الذي عاد أملس.

«بالقديس سيرفاتوس[1]، سأصنع ثروة من وراء ذلك!» هكذا صاح الفنان حين رأى وجه ابنته المشعر.

وهكذا أخبر أحد الصيادلة بسره، وأعد الصيدلي مرهماً أعطاه اسماً صينياً يعني «مُنبت الخبز». وكما أشارت اللافتة التي أعلن فيها عنه، من شأن ذلك الدواء الرائع أن «يجبر الشوارب واللحى على النمو بكثافة في الوجه الأملس لأي شاب» مما يشجّع على شرائه واستعماله.

(1) راهب مسيحي شهير عاش في بلجيكا في القرن التاسع (م).

Twitter: @ketab_n

وسرعان ما ضجّت البلاد بخبر الاكتشاف الرائع فنفدت مخازن الصيدلي في يومين اثنين. وكان على الشباب الآخرين، الراغبين في التفوق على رفاقهم أن ينتظروا أسبوعين حتى يصنع المزيد من الدواء. وفي هذه المدة، كانت قد ظهرت على خدود وذقون شبان كثيرين، وفوق شفاههم العليا أيضاً، غلة وفيرة من الشعر. وشعر بعض من كان يسعى منذ سنوات لتربية شوارب تعجب الفتيات بفرح كبير. ففي بضع حالات، تمكن العاشق من التفوق على غريمه والظفر بالفتاة التي يريدها. وتطورت بعض المغازلات بسرعة إلى ارتباط حقيقي لأن وجهاً أملس منذ زمن طويل، ومثل الصحراء فيما يخص الشعر، يحمل الآن شعراً وافراً. لذا سمي الدواء الجديد «الخاطبة».

فرك الفنان يديه بغبطة متأملاً الثروة التي سيجمعها. فقد كانت حجته أنه إذا ما كان المرهم الرائع يمنح الرجال لحى، فلا شك أنه يصلح كذلك للأسود. ومرة أخرى أُكره الأسد على الخضوع تحت وطأة المسعر الساخن. حينئذ أُمسك بذيله ورُبط بحبل في عمود على أحد جوانب القفص حتى لا يستطيع الحراك. ثم دهن الفنان نحو ست بوصات في وسط الذيل الأملس بالسائل السحري. وخوفاً من أن يلعقه الأسد

Twitter: @ketab_n

عن ذيله، بقي المسكين مقيداً في هذا الوضع المؤلم أسبوعاً كاملاً حتى لا يمكنه أن يستدير، وكاد يموت من شدة التعب.

غير أنه حدث لذيل الأسد كما حدث لذقون الشبان وخدودهم وشفاههم العليا، فقد نمت له لحية لكنها ما إن تُحلق - وكان الشبان يحلقون فعلاً، ظناً منهم أن ذلك يزيد معدل نمو الشعر - حتى لا يعود ينمو مكانها أيّ شعر. كان المرهم يؤدي إلى نمو الشعر لكنه يقتل بصيلات الشعر.

وقد كان مصير الأسد أسوأ. فقد نمت حول ذيله - حيث استُعمل المرهم - ربما بوصة زائدة من الشعر. إلا أن الدواء المؤذي الذي كان قد خدع الرجال ولم يكن يناسب الأسود فعل فعلته هذه المرة. ولهذا السبب إضافة إلى الجهد العصبي، وقع ليو الكهل صريعاً. لقد كان أباً صالحاً قياساً بغيره من الأسود الآباء، وقد حزنت عليه أرملته وأبناؤه. فلم يكن قد حاول أن يأكل أشباله ولا مرة واحدة، حتى وهو جوعان. وكان هذا الأمر في صالحه.

لم يمر وقت على هذه المآثر حتى توفي الفنان العجوز هو الآخر. وقد سمع ابنه بما للأسود من حظوة عند الملوك - خاصة تلك التي في ذيولها مراوح - فأخذ أكثر أشبال الفقيد جمالاً ودلله وغذاه جيداً. وفي السنة السابعة، عندما نما عرفه وشعر

Twitter: @ketab_n

قوائمه، زوجه من لبوة شابة عفية مثله، وعندما ولد لهما شبل اكتُشف - مع مرور ما يكفي من الزمن - أن ركبتيه وكوعيه وخصلة ذيله كانت كلها مليئة بالشعر الفروي. وفي منتصف ذيله، نمت أيضاً حلقات كثيفة من الشعر بطول بضع بوصات. الواضح أن منشط الشعر كان له أثر جيد في نهاية المطاف. لقد أصبح هذا الأسد المميز بتلك الزينة المتطورة والد كل أسود هولندا ذوي الذيول المروحية. ولم يزيّن رسمه شعارات النبالة فحسب وإنما زين أيضاً أختام المدن وشارات البلاد. مع الوقت، صور أسد هولندا بتاج على رأسه وسيف في يمناه وحزمة من سبعة سهام - كنية عن اتحاد المقاطعات السبع (لمملكة البلاد المنخفضة)[1] - وبعد مرور المزيد من الوقت، تأسس أيضاً وسام الأسد الهولندي[2]. وقد بات للأسد مروحي الذيل ذرية طويلة تفتخر كل الفخر بجدها الأول.

(1) البلاد المنخفضة الحالية تتكون من اثنتي عشرة مقاطعة (م).
(2) وسام أسد البلاد المنخفضة: أسسه الملك وليام الأول سنة 1815 (م).

Twitter: @ketab_n

برابو والعملاق

منذ عصور طويلة، حين كان العمالقة يملأون الأرض، عاش عملاق يدعى أنتيجونوس[1]. لم يكن ذلك هو اسمه بالولادة، ولكن أحدهم أخبره عن قائد إغريقي كان ذلك اسمه فاتخذه لنفسه. كان خشناً فظاً يقيم في قلعة على ضفاف نهر شلدت حيث مدينة أنتويرب الآن.

وفي ذلك الزمن كانت السفن الفرنسية والهولندية تبحر عبر ذلك الممر، محملة بالأخشاب والكتان الخام، والحديد والجبن والأسماك، والخبز والأقمشة وغيرها من المنتجات. وقد كانت هذه التجارة وراء ثراء العديد من التجار الذي تمتع أبناؤهم بالعديد من اللعب يلهون بها. كان ربابنة السفن يحبون الإبحار في ذلك النهر، لأنه خالٍ من خطر الصخور، كما أن الأرض التي يجري عبرها بالغة الجمال.

(1) تيمناً بجنرال كان في عداد جنرالات الإسكندر الأكبر (م).

Twitter: @ketab_n

كل يوم كانت تعبر مئات السفن ذات الأشرعة البيضاء آتية أو ذاهبة باتجاه المحيط، واعتاد الصبيان والبنات على الخروج والوقوف بأحذيتهم الخشبية على الضفاف ليتفرجوا عليها وهي تجلب السكر والنبيذ والبرتقال والليمون والزيتون وغير ذلك من طيبات الطعام، إضافة إلى الصوف لصناعة المعاطف السميكة. وكثيراً ما جاء الحرفيون من بلاد الجنوب الرائعة راوين الحكايات عن المدن الغنية هناك، ومساعدين الأهل على بناء بيوت جديدة حسنة وكنائس فخمة ودور بلدية. ما كان يسعد جميع أهل بلجيكا.

لكن ذات يوم، جاء هذا العملاق الشرير إلى البلاد وصار يوقف السفن ويجبرها على أن تدفع له جزية للمرور. وأنشأ قلعة منيعة على ضفاف النهر وسورها بالجدران العالية وحفر في أسفلها دهاليز رطبة مظلمة، لا يستطيع المرء المرور بها من دون أن يوقد شمعة تساعده على تبين طريقه.

لأي غاية كل هذا؟ هكذا تساءل الناس، لكنهم سرعان ما عرفوا الإجابة. فقد دخل العملاق إلى البلدة ملوحاً بهراوة ضخمة من شجرة بلوط. ونادى على الناس جميعاً لكي يجتمعوا في الساحة الواسعة.

Twitter: @ketab_n

ثم أنذرهم هادراً: «من اليوم فصاعداً، لن تمر سفينة في النهر، سواءٌ أكانت خارجة أم داخلة، من دون إذني. وعلى كل ربان أن يدفع لي ضريبة عبور، إما مالاً وإما بضاعة. ومن يرفض تُقطع يداه الاثنتان وترميان في النهر. فاسمعوا وأطيعوا. من يُقبض عليه محاولاً أن يساعد إحدى السفن على المرور دون دفع الضريبة، سواء أكان ذلك في الليل أو النهار، فسوق يقطع إبهاماه ويوضع في زنزانة مظلمة لمدة شهر. أقولها ثانية: أطيعوا!».

قال العملاق هذا وهو يلوح بهراوته في الهواء ثم هوى بها بقوة على عربة ريفي مسكين فأحالها شظايا. وقد فعل ذلك لكي يستعرض قوته أمام الجميع.

وهكذا كل يوم، حين تلوح السفن للنظر، كانت تجبر على التوقف ودفع ضريبة مرور عالية. فسواء أكان الربابنة ميسورين أم فقراء، كان عليهم أن يدفعوا. وإذا ما رفض ربان ذلك، فكان يؤخذ إلى الشاطئ ويجبر على الركوع أمام لوح واضعاً يداً فوق الأخرى، ثم يلوّح العملاق بفأسه ويقطع يديه ويقذفهما في النهر. وإذا تأخر قبطان في الدفع لأنه لا يملك المال، فقد كان يوضع في زنزانة حتى يدفع أصدقاؤه فديته.

Twitter: @ketab_n

ولهذا السبب سرعان ما اكتسبت المدينة سمعة سيئة. فامتنع ربابنة فرنسا عن الذهاب إلى هذه المنطقة، وكذلك ربابنة إسبانيا. تضاءلت التجارة وافتقر الناس أكثر فأكثر. فانسل عدد منهم إلى خارج المدينة وحاولوا أن يعينوا السفن على الإبحار ليلاً والمرور بقلعة العملاق من دون جلبة.

إلا أن عيون العملاق من المراقبين كانوا مستيقظين كالبوم وطماعين كالصقور. فكانوا يهاجمون ربابنة السفن ويقطعون أيديهم ويرمون بها في النهر، أما سكان المدينة ممن يعثر عليهم على متن السفن فيرمى بهم في الزنزانات وتقطع سباباتهم.

وهكذا انتقلت المدينة من الثراء إلى العوز، لأن التجار الأجانب صاروا يخافون إرسال سفنهم عبر بلدة العملاق. وساءت سمعة المدينة أكثر وأكثر، حتى لقبها الألمان «هاند فربن» وهي عبارة تعني «رمي الأيدي»، وحذا الهولنديون حذوهم فسموها «أنتويرب» وهي تحمل المعنى نفسه. جاء دوق برابان - سيد تلك المنطقة - إلى قلعة العملاق وطلب إليه الكفّ عما يفعله، حتى إنه لوح بقبضته تحت أنف العملاق الضخم، وهدد باقتحام قلعته وحرقها. إلا أن أنتيجونوس فرقع بإصبعيه فحسب وضحك في وجهه. ثم عزّز تحصينات قلعته وظل يوقف السفن

Twitter: @ketab_n

ويلقي ببعض ملاحيها إلى الزنزانات ويقطع أيدي ربابنتها حتى سمنت أسماك النهر.

كان هناك شاب شجاع يدعى برابو، يعيش في مقاطعة برابان وكان فخوراً ببلاده ورايتها ذات الألـوان الصفراء والسوداء والحمراء، مخلصاً لسيده الدوق. وقد درس تصميم القلعة جيداً واكتشف نافذة يستطيع أن ينفذ منها مباشرة إلى مخدع العملاق.

ثم ذهب إلى الدوق، وتعهد بأنه إذا ما أغار جنود سيده على قلعة العملاق واقتحموا بواباتها، فإنه سيجد العملاق العردید ويقضي عليه، قائلاً إنه بينما يحطمون البوابات، سيتسلق الجدران. وأضاف: «إنه ليس سوى بولواك (متنمر وقح)، وهذا ما يجب أن ندعوه به، بدلاً من أنتيجونوس».

وافق الدوق. وفي ليلة مظلمة، بعث ألفاً من خيرة مقاتليه يحملون الشارات ولكن دون طبول أو مزامير أو أي شيء يصدر صوتاً قد يثير انتباه الجواسيس.

حين وصلوا إلى الغابة المليئة بالأشجار الضخمة بالقرب من القلعة، انتظروا إلى ما بعد منتصف الليل. وقد أمسكوا بجميع

Twitter: @ketab_n

الكلاب التي في البلدة والريف المحيط ضمن دائرة قطرها خمسة أميال ووضعوها في حظيرة حتى لا تنبح وتوقظ العملاق. أعطوها وفرة من الطعام حتى نامت بسرعة وهدأت تماماً.

وعند انطلاق الإشارة المتفق عليها، زحف مئات الرجال يحملون سواري السفن أو جذوع الأشجار نحو بوابات القلعة وظلوا يضربونها حتى تحطّمت فاندفعوا إلى الداخل. وبعدما انتصروا على الحامية العسكرية الخاصة بالعملاق، أوقدوا الشموع وحطموا أقفال الزنزانات وحرروا المساجين المساكين الذين كاد الجوع يفتك بهم. كان بعضهم كالح اللون متهالكاً نحيفاً كالقضبان الرفيعة التي يستعملها الرياضيون في الوثب، وبالكاد قادراً على الوقوف. وفي ذلك الوقت، فُتحت أبواب الحظيرة التي أبقيت فيها الكلاب على مصراعيها. وبصرخة عظيمة، خرجت كتيبة من تلك الحيوانات على تنوعها – من الجراء إلى كلاب الصيد – تنبح وتعوي وكأنها تعلم ماذا يجري وتريد أن تستمع بالفرجة عليه.

ولكن أين كان العملاق؟ لم يستطع أي من القادة العسكريين أن يجدوه، ولا عرف أي من السجناء أو أعضاء الحامية العسكرية بمكان اختبائه.

Twitter: @ketab_n

غير أن برابو كان يعلم أن العملاق أنتيجونوس، ليس شجاعاً في الحقيقة، ولكنه متنمر جبان. لذا لم يكن خائفاً منه، وقد عاونه بعض رفاقه في الخارج على رفع سلم يمكنه من تسلق الحائط، وبينما اتجه العيون والمقاتلون جميعاً إلى الخارج للدفاع عن البوابات، تمكن برابو من التسلل إلى القلعة عبر ثقب في الحائط الضخم لاستخدام حملة القوس والسهم، وعادة ما كان يشغله حارس. حاملاً سيفه في يده، اتجه برابو مباشرة إلى غرفة العملاق، وحين رآه هذا الأخير حملق به مندهشاً، ثم أمسك بهراوته وهوى بها بعنف حتى إنها اخترقت الأرضية الخشبية. إلا أن برابو تفادى الضربة وكالبرق ضرب بسيفه ضربة كاسحة قاطعاً رأس العملاق ورامياً إياه من النافذة. وما كاد يلامس الأرض حتى وصلت الكلاب فهرب به أحد أكبر هؤلاء ولم يجد أحد الرأس الكبير المشعر لذلك المتنمر قطّ بعد ذلك.

أما يدا العملاق – فيا له من منظر! لقد قطعهما برابو وواقفاً فوق أعلى أبراج القلعة بينما يتطلع الجميع إليه ويصفقون، وضع برابو إحداهما فوق الأخرى كما كان يفعل العملاق حين يقطع أيادي الربابنة. وآخذاً اليد اليسرى أولاً ثم اليمنى، قذفهما في النهر واحدة بعد الأخرى.

Twitter: @ketab_n

وكان مشهداً لطيفاً حين اكتشف الناس بما حدث وافتخروا بجسارة برابو وشجاعته. ففي لحظة، أشعل كل بيت في أنتويرب شموعاً متقدة فصارت البلدة كلها مضاءة. ومن بوابة البلدة جاءت جماعة من الصبايا يرتدين الأبيض غير أن قائدتهم ارتدت الأصفر والأحمر والأسود، وهي ألوان علم برابان. وغنين معاً في مديح برابو البطل.

قال أحد كبار البلدة: «لنتخلص اليوم من الاسم الشائن للمدينة، ذلك الذي يعرّفها برمي الأيدي. ولنعطها اسماً جديداً».

قال الحاكم الأكبر للمدينة: «لا،، فلنبق الاسم القديم وندعو كل السفن للعبور من جديد بآنتورف (وهو تحريف للحرف الأخير ولترتيب العبارة يجعاها تعني: عند المرسى)، كما في الماضي. ولنجعل شارة سلاح المدينة يدين حمراوين فوق قلعة».

«موافقون» صاح المواطنون صيحة رجل واحد. فوافق دوق برابان ومنح المدينة امتيازات جديدة، تكريماً لشجاعة برابو. وفي كل مكان، من الأعالي إلى المنخفضات، احتفل الجميع على شرف البطل الذي كوفئ ببذخ.

Twitter: @ketab_n

وبعد ذلك صارت آلاف السفن من بلاد عديدة تملأ وتفرغ حمولاتها في موانئ أنتويرب أو تبحر عبرها بسلام، فتفوقت على جميع الموانئ وصارت بالغة الثراء. وأحب أهلها مدينتهم لدرجة وضع مثال دارج يقول: «العالم خاتم وأنتويرب درته».

وحتى اليوم، في الساحة الكبرى، يقف النصب البرونزي العظيم في ذكرى برابو الشجاع حيث جذع العملاق أنتيجونوس ملقى بلا رأس أو يدين، ومن فوق جسده قلعة أنتويرب التي يقف برابو في أعلاها وتخترق قامته السحاب، وهو يمسك بإحدى يدي أنتيجونوس على وشك أن يلقيها في نهر شلدت.

وليس من شعب يكبّر الشجاعة مثل البلجيك. فهم حتى اليوم - كما في الماضي - من أشجع الشجعان.

Twitter: @ketab_n

المزرعة التي هربت ثم عادت

ذات مرة، كان هناك رجل هولندي يعيش في مقاطعة درينث. ولأن هناك صف من الأشجار الصغيرة في مزرعته، فقد كني باسم راير فان بومبيس (راير أبو الشجيرات). وبعد فترة، انتقل إلى شاطئ زويدر زي ومنه إلى أوفريسل. وأوفريسل تعني نهر إيسل. وهناك اشترى مزرعة جديدة بالقرب من قرية بلوكزيل[1]. وباستخدام السدود والمضخات، كان بعض الحكماء قد حولوا عشرة فدادين من الرمل والأرض البور إلى أرض للرعي والزراعة وأحاطوها من ثلاثة جوانب بقنوات المياه، حيث كان الجانب الرابع يحده الزويدر زي. ثم أعلنوا بكل فخر عن مزايا الأرض الجديدة فاشتراها راير فان بومبيس وكان فخوراً بجزيرته مثل مختار المخاتير وحكمها كأنه القيصر.

(1) درينث من أقل مناطق البلاد المنخفضة كثافة سكانية، أما مقاطعة أوفرسيل إلى الجنوب فهي على ساحل بحر الشمال وقد عرفت بأكبر أنهارها، والزويدر زي (وتعني بالهولندية بحر الجنوب) خليج ضحل شمال غربي البلاد تم فصله عن بحر الشمال فصار ماؤه حلواً (م).

Twitter: @ketab_n

وكان راير قد تزوج قبل بضع سنوات من «كويزل» كما يسمي الهولنديون العذراء التي لم تعد صغيرة السن. وفي التاريخ الذي تبدأ به قصتنا، كان له أربعة أبناء يتمتعون بالصحة والعافية تربوا تربية محافظة على الطراز القديم. وكانت شهيتهم مفتوحة دائماً فبإمكانهم أن يأكلوا نصف «بك» كامل من الكرنب والبطاطا، وخبز الجاودار والجبن، وأن يشربوا الحليب كامل الدسم بالكوارت[1]. وإضافة إلى ذلك، امتلك راير أربعة خيول وست بقرات، وكلبين، وبضعة ديكة وبضع دجاجات وإوزات وبطات، وحماراً واحداً.

لكن رغم ثراء راير، وبما أن الثراء يعتد به في مسقط رأسه درينث، فقد كان يطمع بالمزيد. فيقتر في تغذية حيواناته إلى حد جعل جيرانه يعلنون أنهم رأوه يضع نظارات خضر على عيون بقراته وحماره ثم يمزج القش والنشارة بالعلف موهماً الحيوانات بأنها تأكل الحشيش الطازج.

كما كان يحرص على حرث آخر بوصة من الأرض ولو مباشرة قرب مياه النهر، وعندما تطفو سبخات من أرض جيرانه على مياه الشاطئ كان يعتقد أن الحظ حاباه فيخرج بالليل ليجرّ بقايا زرع جيرانه ويلصقها بأرضه هو.

(1) ربع جالون، والكوارت أقل بقليل من اللتر (م).

Twitter: @ketab_n

بعدما حدث هذا الأمر عدة مرات، وأضاف راير نصف فدان من الأرض الخصبة إلى عقاره، تملكه الطمع مثل عفريت شرير. فبدأ يسرق الأرض من الضفة الأخرى من النهر. ومع مرور الوقت، صار لص أراض محترف. فكلما رأى أو سمع بقطعة أرض طافية، كان يجذف بقاربه في الليل، وقبل الصباح يكون قد ألصقها بمزرعته بمعاونة أشرار يشاركونه ربح السلب وهو يدفع رواتبهم.

في هذه المرحلة، لم يكن قد اكتشف بعد أن أملاكه المكتسبة سفاحاً - وقد اتسعت الآن إلى اثني عشر فداناً أو أكثر - هي نفسها عقار مهتز وغير مستقر. في الواقع، لم يكن العقار حقيقياً على الإطلاق. وقد أخبرته زوجته بذلك ذات يوم، لأنها تعلم بحيل زوجها البخيلة.

وفي زهاء تلك الفترة، هطلت أمطار غزيرة لأيام عدة، حتى تحولت المنطقة إلى طين وبدا أنها كلها تطفو على الماء. وبدا أن السدود موشكة على الانفجار، وخاف الآلاف من أن تكون الأرض قد أصيبت بنوبة من ذلك المرض المسمى فال (أي الانخساف) فتغور التربة تحت الماء كما حدث مع بعض أجزاء المملكة في عصور غابرة.

Twitter: @ketab_n

لكن شيئاً من تلك المتاعب المرتقبة لم يخف راير، ذلك أن طمعه بلا حدود. وفي أول يوم أشرقت فيه الشمس من جديد، مما أدى إلى أن تجف أجزاء من مزرعته بسرعة، أعد اثنين من خيوله للعمل وقادهما إلى أبعد حد قريباً من المياه لدرجة أنه وقع هو وهما والمحراث في ذلك المزيج من الطين والماء.

وفي اللحظة عينها فاضت مياه من النهر في موجة هائلة كالفطر وبدا أن عقار راير المبلل بأكمله على وشك أن يتشظى ويطفو مع الماء.

وحين وقع الرجل البخيل في الماء، خبط رأسه بقضيب المحراث بقوة شديدة حتى إنه رقد غائباً عن الوعي لمدة نصف ساعة. وكان ليغرق بالتأكيد لو لم يكن «بيت» - ابنه متين البنية، الذي لم يكن بعيداً - قد رأى ما جرى وهرع إلى البيت حيث ركب قارباً إلى البقعة التي رأى فيها أباه آخر مرة، وأمسك والده من ياقته، وسحبه نصف ميت إلى متن ذلك القارب. بين الضربة والرعب والمياه الباردة، استغرق راير العجوز وقتاً طويلاً حتى عاد إلى رشده، وظل «بيت» البار بوالده يفرك يدي أبيه حتى تحرك الدم في جسده من جديد.

Twitter: @ketab_n

إلا أن هذا كله استغرق وقتاً طويلاً، وربما زاد على الساعة. وحين أصبح الأب قادراً على الجلوس والكلام، بدأ «بيت» يجذف عائداً إلى المرسى الصغير الملحق بالبيت.

ولكن أين هو المرسى – أين المزرعة، والبيت والحقل؟ أين اختفت كلها؟ كان راير من البلبلة إلى درجة أنه لم يستطع أن يحدد اتجاهاته، أما «بيت» فكان على علم بالاتجاهات، ومع ذلك، لم يجد لمزرعة أبيه أثراً. نظر إلى شاطئ أوفريسل، ذلك الذي غادره، وبدلاً من الخطوط المستطيلة القديمة من شجر الصفصاف، التي يبرز خلفها برج الكنيسة، رأى مكاناً فارغاً ضحلاً. بدا أن عملاقاً بحجم العالم نفسه قضم قطعة الأرض تلك وابتلعها. تبادل الأب وابنه النظرات مبهوتين، لكنهما لم ينبسا بكلمة، إذ لم يكن هناك ما يقال.

أين اختفت، في هذه الأثناء، المزرعة والكويزل، كما ظل الجيران يسمون الأم وأبناءها؟ لقد رأوا أنفسهم يطفون بعيداً في اتجاه ما. فقد ظلّ البر يتراجع أكثر فأكثر كل لحظة. والواقع أن المزرعة كلها تحركت من أوفريسل شمالاً باتجاه مقاطعة فريسلاند. وواحداً بعد آخر، توارت أبراج كنائس القرية المجاورة عن النظر.

Twitter: @ketab_n

لكن عندما تبدلت الريح من الجنوب إلى الغرب، بدا وكأنهم على متن سفينة وجهت أشرعتها غرباً إلى شمال هولندا. كان الأبناء الأصغر أبعد ما يكونون عن الخوف، فقد صفقوا بأيديهم في حبور، وكان ركوب البحر الواسع الذي طالما رأوه يمثل لهم متعة كبيرة، إذ لم يكن أبوهم البخيل قد امتلك في حياته عربة ولا سمح لهم بركوب الخيول ولطالما أجبر عائلته على الذهاب سيراً على الأقدام إلى الكنيسة.

أما بالنسبة إلى المزرعة الطافية، فلم تفهم البقرات الأمر وأخذت تجأر بصوت يبعث على الشفقة، فيما نهق الحمار عالياً. في الليل، ويوماً بعد يوم، لم يكن هناك من يعتني بالحيوانات على النحو المطلوب، ويوفر لها ما يكفيها من الطعام والماء. ذلك أنه دائماً ما يرى المرء وسط حقل المرعى الهولندي حوض ماء كبير. لم يهتم بذلك الحوض لا البطات ولا الإوزات ولا الدجاجات، غير أن الماشية والخيول العطشى كانت قد شربته حتى جف في نهاية اليوم الأول. ولم يكن بإمكان أحد من الوحوش البكماء أن تشرب من الزويدر زي حتى إذا لم تخف من الغرق، فإن مياهه أكثرها من البحر أي أنها مالحة أو على الأقل فيها شيء من الملوحة.

Twitter: @ketab_n

وأحياناً ما كانت تمر هذه المزرعة التي انفصلت عن الأرض بالصيادين، فيتساءلون عن كل هذه الأرض الطافية. إلا أنهم يخشون إيقافها أو الاقتراب منها بمراكبهم، إذ قد يحسبهم أصحابها متطفلين. واعتبر الآخرون أن الأمر لا يخصهم، معتقدين أن مجنوناً ما قرر أن يستعمل أرضه كسفينة لنقل حقوله وبيته وممتلكاته موفراً على نفسه التكلفة. وفي بعض القرى، كانت المزرعة الهاربة ترى من فوق أبراج الكنائس فتوفر – على مدى ثلاثة أيام – موضوعاً للنميمة بين النساء وهن يحلبن الأبقار أو يحكن الجوارب. وكانت موضوعاً مشوقاً بالنسبة إلى الرجال كذلك، وهم يدخنون أو يشربون قهوتهم.

«كان عليها أناس حقيقيون وبيت وحظائر» هكذا قال قندلفت[1] الكنيسة، معلناً أنه رأى نوعاً جديداً من الإنسان الهولندي الطائر. «كان هذا المشهد الاعتيادي، الذي يتضمن البقرة والكلب واللقلق»، كما يقول المثل الهولندي القديم.

وأخيراً بعد بضعة أيام، حين كاد الإنهاك والرعب أن يأتي على راير وابنه وهما يحاولان أن اللحاق بقاربهما بالمزرعة الهاربة، وصلا إلى قرية على الضفة الأخرى من الزويدر زي،

(1) المسئول عن الاعتناء ببناء الكنيسة والأرض المحيطة به (م).

Twitter: @ketab_n

في مقاطعة هولندا الشمالية، حيث سدا رمقهما بخبز الجاودار واللفت وتناولا كعك الوافل على سبيل الحلوى. نفدت القروش القليلة التي بحوزتهم بسرعة، وحينئذ حار الرجلان فيما يفعلانه بعد ذلك.

في ذلك الوقت، بعيداً على المزرعة الطافية، جن جنون الأم وأبنائها خوفاً من الجوع. لقد نفد كل ما هناك من طعام للماشية فلم يعد للكلب لحم ولا للقطة حليب وكان اللقلق قد جاء على مخزونه من الضفادع. لم يعد هناك سكر ولا بن، لا خبز جاودار ولا خبز بالزبيب. لم يعد هناك سجق مقطع أو جبن بشرائح رقيقة لأحد، لم يعد هناك سوى بعض البطاطا والشعير. لحسن الحظ، مع ذلك، وهم يطفون على مدى النظر من قرية أوستربيك، انتبهت الأم والأبناء إلى أن ريح الشرق تشتد. وسرعان ما تبينوا أبراج كنائس هولندا الشمالية. وأسعدت رائحة الأبقار والجبن بني آدم وبني الحيوان على حد سواء، حيث دفعت الريح بالجزيرة غرباً باتجاه القرية.

وللغرابة كان هذا هو المكان نفسه الذي وصل إليه راير و«بيت» أيضاً بعد تجذيف شديد. كان الأب وابنه جالسين في صالة النزل مطرقين بالأرض الرملية متسائلين كيف سيدفعان

Twitter: @ketab_n

ثمن الشطائر والقهوة في الوجبة التالية، إذ كانت قد نفدت نقودهما.

في تلك اللحظة، دخل صبي صغير مندفعاً إلى الغرفة. كان يرتدي سروالاً أصفر واسعاً وكان شعره –باللون نفسه – مقصوصاً في خط مستقيم من الأذن إلى الأذن. وكان يلهث قليلاً حين أعلن مجيء ما بدا مزيجاً من المزرعة والحيوانات الطافية على الماء. كان فوق ذلك الشيء بيت وامرأة وبضع بنات وكلب وقطة ولقلق.

وعلى الفور خرج راير العجوز يعرج وهو لا يزال متيبساً من حمامه البارد، وراح «بيت» يركض أمامه. نعم، إنها الأم والأولاد وكل الحيوانات! لأول مرة في حياته شعر ذلك الخطاء البخيل بقلبه يدقّ امتناناً تحت سترته الصوف ذات الزرين الذهبيين. وانبجس من داخل روحه المتجمدة شيء أشبه بالإيمان الحقيقي.

وتطوع جيش كامل من الفتية والصيادين والمزارعين إضافة إلى فرو سمينة أو اثنتين للخروج وسحب المزرعة الهاربة إلى مرسى القرية. وقد تمكنوا من شد الجسم الطافي وربطوه بالحبال إلى مربط الخيل (ذلك الذي تربط فيه الجياد على الشاطئ).

Twitter: @ketab_n

في تلك الليلة، كان الجميع سعداء وقد ثبّتت المزرعة بحبل آخر إلى مضخة البلدة. ثم أخلد أهل القرية جميعاً للنوم. كانوا سعداء بإنقاذ مزرعة هاربة، ويتوقعون «لوون» أو جائزة جيدة من راير العجوز الثري الذي اعتاد أن يختال بماله في الحانة.

أما بالنسبة إلى آل فان بومبيس، فلكي يوفروا أجرة المنامة، باتوا في بيتهم على متن المزرعة الراسية وسط الماشية التي ظلت تنادي، بطريقتها، طلباً للمزيد من العلف. واستغرب أهل القرية أن يأتي صياح الديكة من الماء، فيما بدت طيور الحظائر خائفة، وكانت مصيبة في ذلك، فقبل منتصف الليل حين كانت كل المخلوقات نائمة ولا يوجد حتى فأر يتحرك على الأرض سواء كان ثابتاً على اليابسة أم طافياً فوق الماء، اشتدت ريح الغرب بعنف وهب إعصار مريع.

وفي لحظة، انقطعت الحبال التي تثبت المزرعة الهاربة إلى مضخة القرية ومربط الخيل. وغادر عقار آل فان مومبيس المرسى واندفع بسرعة هائلة عبر الزويدر زي واستمر الأمر لبضع ساعات. لكن كان نوم الجميع من العمق فلم يستيقظ أحد في أثناء تلك الرحلة الغريبة، لا الرجل ولا المرأة ولا الأولاد ولا الدجاجات. وحتى الديكة، بعد فاصلها الغنائي الأول، أمسكت عن إصدار أي صوت.

Twitter: @ketab_n

فجأة، وكأن رباناً ماهراً يقودها، اندفعت مزرعة آل فان بومبيس – وقد صارت رحالة مخضرمة بعد كل مغامراتها – إلى مكانها القديم، متوقفة في موضعها السابق بالضبط. وقد حدث هذا بعنف شديد لدرجة أن راير فان بومبيس وزوجته انقلبا عن فراشهما وتهاوت البقرات في الحظيرة. نبح الكلب، معتقداً أن أحداً ركله. وأطلق ديك عجوز جلبة عظيمة من الصياح بعدما سقط من فوق مجثمه، حتى إن بعض المستيقظين باكراً خرجوا يدعكون عيونهم ليروا ماذا يحدث.

وصاحوا جميعاً: «هيميل إين آرد، بليكسيم إين ريجن (أيتها السماء والأرض، أيها البرق والمطر!) إن المزرعة القديمة عادت إلى مكانها».

والحقيقة أن عقار آل فان بومبيس كان قد التصق بالبر وكأن المكان المخصص له قد احتضنه بقوة. وكان قد ضرب بعنف حتى أن ضلعاً من التربة المبتلة ارتفع خمس بوصات علامة على مكان الارتطام. وتهشم ما لا يقل عن عشرين سمكة وإنقليس مرتعش في الارتطام.

من ذلك اليوم فصاعداً، استعاد فان مومبيس ضميره وصار بالفعل رجلاً أميناً. فراح يقطع من مزرعته أجزاء أعادها إلى

Twitter: @ketab_n

ملاكها الأصليين، دافعاً عنها فائدة من المال، وبعث بقدر يعتد به من الذهب إلى تلك القرية بهولندا الشمالية التي رست فيها مزرعته لبضع ساعات. وبضمير مرتاح، صار يذهب إلى الكنيسة ويتعبد. ولوحظت مساهماته في التبرع للأعمال الخيرية كل أحد – على عادة الهولنديين – كعلامة أكيدة على توبته النصوح. فعندما كان الشمامسة يدفعون بقفازاتهم البيض بأكياس التبرع المخملية السود إلى أسفل أنفه– وطول كل كيس عشرة أقدام – كان هذا الرجل الذي كان لسنوات بخيلاً يسقط فيها قطعة عملة فضية كل مرة.

وفي المزرعة عاشت كل الحيوانات – من البطة إلى اللقلق ومن الكلب إلى الثور – حياة أهنأ بالاً. وأعلن كل أفراد العائلة أن سلوك الزويدر زي والريح معاً حولا فان بومبيس الهرم إلى إنسان جديد وأب رائع. وقد عاش حياة مديدة سعيدة، وحين توفي حزن الناس لرحيله.

Twitter: @ketab_n

سانتا كلاس و«بيت» الأسود[1]

من هو سانتا كلاس[2]؟ كيف اكتسب اسمه؟ أين يعيش؟ وهل رأيته قطّ؟

هـذه أسئلة كثيراً ما يوجهها الأشخاص الصغار إلى الحكواتي.

قبل أن يأتي سانتا كلاس إلى البلاد المنخفضة، أي إلى بلجيكا وهولندا، كانوا يسمونه بأسماء كثيرة في البلاد المختلفة التي يعيش فيها أو يزورها. يقول بعضهم إنه ولد في بلدة مايرا (في تركيا الحالية)، قبل مئات السنين من حصول الهولنديين على سد أو طاحونة أو كعكة وافل أو أحذية خشبية. ويخبرنا آخرون أنه، في زمن المجاعة، وجد ذلك القديس أجساد ثلاثة أطفال

(1) تعرض هذه الحكاية لتوجهات الكاتب العنصرية وقابليته على عقاب الأطفال بالضرب أو الحبس وغير ذلك من الوسائل الوحشية في التربية، بل وعلى استخدام السود في تخويفهم. وقد يلتمس له العذر إذا ما وضع زمن النشر (1918) في الاعتبار، إلا أنه من الضروري تأكيد أن التفرقة العنصرية، شأنها شأن سوء معاملة الصغار، ممارسات بالية ومشينة (م).

(2) سانتا كلوز، بابا نويل (م).

Twitter: @ketab_n

في السوق وقد حفظت في الخل في حوض حتى تكون جاهزة للأكل حين تباع. وأعاد ذلك السيد الكريم القديس، واسمه نقولا هؤلاء الأولاد الثلاثة إلى الحياة. ويقال إنه ذات مرة فقد أعصابه وضرب بقبضته سيداً يدعى آريوس[1]، إلا أن الحكواتي لا يصدق ذلك ويظنه خرافة تم تأليفها فيما بعد. فكيف يمكن لقديس أن يفقد أعصابه على هذا النحو؟

وها هي قصة أخرى يحكونها عن القديس نقولا: كان هناك ثلاث فتيات جميلات خسر أبوهن كل ماله. كن يردن الزواج بشدة، ولكن لم يكن لديهن المال لشراء ثياب مناسبة يتزوجن بها. وقد أشفق نقولا على أزواجهن المستقبليين وعليهن. لذا جاء إلى الأرمل، وترك لكل واحدة منهن ثلاثة أكياس من الذهب. وهكذا حصلن على ثلاثة أزواج وعشن سعيدات إلى الأبد، من دون أن يتسلطن على أزواجهن أبداً.

مع الوقت، صنع الصاغة والمصرفيون والمرابون شارة لهذه لأكياس الذهب الثلاث على شكل كرات. والآن يعلقونها على أبواب المحلات اثنتين فوق واحدة (على شكل مثلث مقلوب) ما يعني: «اثنتان مقابل واحدة – لن تسترد الرهن أبداً» والكلام

(1) الإشارة على الأرجح إلى القسيس البربري آريوس، أحد أشهر الهراطقة في التاريخ المبكر للمسيحية: كان يعيش في الكنيسة المرقصية في الإسكندرية في القرن الرابع (م).

Twitter: @ketab_n

موجه إلى من أتى بخاتم أو معطف فرو أو ملابس أو ساعة أو ملاعق ليرهنها.

وهائل هو عدد القصص التي يحكونها عن ذلك الرجل الصالح، نقولا، الذي يقال إنه كان يعمل في تلك الوظيفة التي يسمى صاحبها أسقفاً أو مفتشاً يتنقل بين الكنائس ليتأكد من كل شيء فيها يجري على ما يرام. ولأن هذا السيد المبجل كان مضطراً إلى التنقل كثيراً، فقد بنى المسافرون والملاحون المعابد والكنائس على شرفه. ولكي يسافر، كان لابد له من سفينة في البحر وحصان في البر، أو رنة[1] في الشمال البارد، مع أنه الآن - أو هكذا يقال - يجيء إلى هولندا على متن سفينة بخارية ويستعمل سيارة.

في ليلة زيارة سانتا كلاس كل عام، يضع كل واحد من الأطفال الهولنديين في المدخنة فردة من حذائه الخشبي، وبداخلها حفنة تبن لغذاء حصان المسافر. حين جاء القديس نقولا إلى هولندا أول مرة، وصل من إسبانيا على متن سفينة شراعية وركب حصاناً. أما الآن فيصل على متن سفينة بخارية كبيرة مصنوعة من الحديد الصلب. وربما يأتي في

(1) الأيل الشمالي الذي اشتهر به بابا نويل يجر مركبة الجليد، وله قرنان طويلان متفرعان وفرو سميك (م).

Twitter: @ketab_n

المستقبل على متن طائرة. ولكي يملأ كل الأحذية والجوارب (بالهدايا)، لابد للقديس الصالح من حيوان يركبه. فكان الحصان الأبيض السريع المسمى سليبنر[1] معداً له، وعلى صهوته قام برحلاته.

Twitter: @ketab_n

(1) حصان ذو ثماني قوائم مشهور في الأساطير الشمالية الإسكندنافية (م).

ماذا كان يرتدي سانتا كلاس؟

كانت ملابسه هي ملابس الأسقف. وكان يرتدي معطفاً أحمر وطاقية أسقفية أعلى من العمامة وتسمى قلنسوة، وهي مدببة من الأعلى. وكان يحمل في يده عصا الأسقف، التي استعارها الأساقفة من رعاة الغنم – فقد كان يساعد الحملان بها على المرور في المناطق الوعرة – إلا أن عصا الأسقف مذهبة في طرفها. كان له شعر أبيض وخدان ورديان. وبالنسبة إلى شيخ فقد كان نشيطاً جداً، ولم يمرّ على قلبه يوم كان فيه أكبر من قلب طفل، فقد ولد قلبه هذا مع ولادة الحب الأمومي والرعاية الأبوية في العالم، وهو لا يكبر في السن.

وعندما يسافر سانتا كلاس إلى النرويج وغيرها من المناطق الباردة، حيث الرنة ومركبة الجليد، كان يبدّل ملابسه. فبدلاً من الرداء الأحمر يرتدي سترة أقصر بكثير مهدّبة بفرو القاقم الأبيض كالثلج. كما يستبدل قلنسوته بطاقية من الفرو أيضاً ويضع عصا الأسقف جانباً. وفي الجليد لا تنفع العجلات،

Twitter: @ketab_n

والسحاجات والمزالج هي الأفضل للسفر السريع. لذلك بدلاً من الحصان الأبيض والعربة التي يجرها، كان سانتا كلاس يقود مركبة جليدية يجرها ذكران من أيل الرنة بقرون كبيرة. وفي كل بلد يضع في جوارب الأطفال المعلقة أو أحذيتهم الموضوعة في المواقد شيئاً يحبونه. في جرينلاند، على سبيل المثال، يعطي الأشخاص الصغار دهن الحوت وشصوص صيد السمك. فإن هداياه ليست متماثلة في كل بلد. ومع ذلك، للأولاد والبنات الأشقياء في كل مكان، بدلاً من أن يملأ جواربهم، قد يترك لهم قضيب خيزران أو يدعها فارغة.

عندما يسافر سانتا كلاس، دائماً ما يعود بأشياء حلوة. وحين سافر إلى البلاد المنخفضة الجديدة، في أمريكا، ماذا وجد ليعود به إلى هولندا؟

حسناً. لقد وجد هنا، في قارتنا[1]، الذرة والبطاطا وقرع العسل وسكر القيقب[2] وما يوضع في الغلايين للتدخين (التبغ). هذا إضافة إلى طيور وحيوانات غريبة، كالديك الرومي

(1) المقصود بقارتنا أمريكا إذ أن المؤلف أمريكي، والبلاد المنخفضة الجديدة، نيونيذرلاند، كانت المستعمرة الهولندية في شمال شرق الولايات المتحدة الحالية أثناء القرن السابع عشر (م).

(2) شجر القيقب المشهورة به كندا (م).

Twitter: @ketab_n

والراكون[1]، والكثير من الزهور الجديدة. فإن ما يمكن أن يسمى عشباً ضاراً هناك كآذان الدب (تلك النبتة ذات الأزهار الصفراء) يعتبر جميلاً في أوروبا، حيث لم يكن لديهم مثل هذه الأشياء. وهناك يسمونه نبات المخمل الأمريكي أو شمعدان السلطان.

ولكن الأفضل من ذلك كله أن سانتا كلاس وجد صبياً زنجياً اسمه «بيت»، الذي صار أخلص مساعديه. في أوترخت[2] بهولندا، ينظم طلبة الجامعة كل عام موكباً يمثل سانتا كلاس على صهوة حصانه الأبيض مع «بيت» الأسود الموجود على مقربة دائماً والمشغول باستمرار. لقد أحضر والد «بيت» الأسود الفول السوداني من أفريقيا إلى أمريكا، وأحياناً ما يسكب سانتا كلاس ملء كيس من هذا النقل – كشيء بالغ الطرافة – في أحذية الهولنديين الصغار.

انشغل سانتا كلاس كثيراً بزيارة البيوت والمدارس العامة في البلاد المنخضة الجديدة، في أمريكا، ففي تلك المدارس يتلقى الأطفال من الجنسين وليس الصبيان فحسب تعليماً مجانياً. في

(1) الراكونيات ثدييات آكلة لحوم موطنها أمريكا الشمالية ولها وجه يشبه الثعلب وجسم يشبه القط (م).

(2) مدينة ومقاطعة شرقي الراندستاد أي المساحة المدنية التي تضم أكبر أربع مدن في هولندا: أمستردام وروتردام والهاج وأوترخت، وهي أصغرها أي رابع أكبر مدينة في البلاد (م).

Twitter: @ketab_n

زيارات لاحقة سمع سانتا بالقبطان كيد[1] وزملائه القراصنة ممن يرتدون قمصاناً مخططة وطواقي حمراء ويربطون شعرهم على شكل ذيل حصان ينسدل على ظهورهم. هؤلاء الناس يضعون الحلق في آذانهم ويدسون المسدسات والسكاكين في أحزمتهم. وبدلاً من الحصول على المال بالعمل الحلال، فإن القراصنة يسرقون السفن ثم - كما قيل في الماضي - يدفنون كنوزهم. ولذلك فإن الحمقى والفتيان الذين يكثرون من قراءة الروايات التي تحكي عن مغامرات القراصنة، يحفرون الأرض ليجدوا ذهب القبطان كيد.

ولكن سانتا كلاس لا يحب أمثال هؤلاء الناس. وقد كان طيباً مع السود الفقراء بدرجة طيبته مع الأطفال البيض. لذا أحب السود القديس الصالح أيضاً، فقد كان زنوجهم الصغار دائماً ما يعلقون جواربهم ليلة السادس من سبتمبر.

لقد ملأ سانتا كلاس أهل البلاد المنخفضة بزخم روحه الطيبة حتى أصبح الأطفال في طول الولايات المتحدة وعرضها، وحتى أطفال الأمريكيين المقيمين ببلاد أخرى، يعلقون جواربهم ويتطلعون إلى زيارته.

(1) وليام كيد (1645-1701) من أشهر القراصنة، اسكتلندي أعدم إثر محاكمته بتهمة القرصنة بعد رحلة إلى المحيط الهندي وانتشرت أسطورته في أمريكا على وجه الخصوص (م).

Twitter: @ketab_n

في هولندا، كان «بيت» مخلصاً لسيده أميناً معه، فكان يحمل عنه ليس فقط صرر الهدايا للأطفال المطيعين ولكن أيضاً القضبان للأولاد والبنات الأشقياء. وبين أكوام الأشياء اللطيفة المعدة لإدهاش الأطفال المطيعين على جانب، وصناديق الخيزران وعصي البتولا والأحزمة للصغار الأشقياء، يمسك «بيت» بوعاء الوفرة الذي يشبه قرناً وفي داخله دمى ومراكب ومزامير وطبول وكرات وألعاب على هيئة بيوت وقلاع وسفن حربية ورايات وحيوانات مثل التي كانت على فُلْك نوح وقوالب بناء وكتب قصصية ومصورة وسيارات وقطارات وعربات وقاطرات صغيرة وجياد هزازة وطواحين إضافة إلى الكعك والحلويات والمراوح وأشياء لطيفة لا تعدّ ولا تحصى.

يعتني «بيت» أيضاً بحصان سانتا كلاس، المسمى سليبنر، وهو من السرعة بحيث سمي زورق الطوربيد وغواصة اليوبوت (وهي أسرع ما أنتجته الإنسانية إلى زمن نشر هذا الكتاب) على اسمه. كان لهذا الحيوان الرائع ثماني قوائم، لزيادة سرعته. كان هذا أيام ما كان يمتطيه الإله وودن[1]، إلا أنه مع مرور الوقت أسقط أربع قوائم، لذا يبدو حصان سانتا كلاس أشبه بالجياد الأخرى من تلك الحشرة البشعة المسماة أم أربع وأربعين. وحين

(1) إله أسطوري كان يعبد في تلك المناطق قبل المسيحية (م).

Twitter: @ketab_n

يمضي سانتا كلاس راجلاً، يكون على «بيت» أن يحذو حذوه. ذلك على الرغم من أن الصناديق المليئة بهدايا الأطفال بالغة الثقل وعلى «بيت» أن يحملها.

لا يفرق سانتا كلاس بين الفتيات الغنيات والفتيات الفقيرات، لكنه يميز بين الأولاد المطيعين والأولاد الأشقياء. فالطفل الذي يقبض عليه وهو يسرق المربى من الخزانة، أو الكعك من المطبخ، أو الفتاة التي تغرف من وعاء السكر أو تأكل أكثر من نصيبها من حلوى الفدج - وكذلك كل من يكون سخيفاً أو بخيلاً أو أنانياً من الأطفال، وسيء الخلق - يعتبر شقياً ويستحق قضيب الخيزران أكثر مما يستحق الهدايا. وينطبق الكلام ذاته على الأطفال الذين يحضرون مدرسة الأحد الدينية لبضعة أسابيع قبل عيد الميلاد ثم يمتنعون عن حضورها حتى ديسمبر التالي. هؤلاء، يسلمهم سانتا كلاس إلى «بيت» ليؤدّبهم بقضيب الخيزران.

في هولندا، لايزال «بيت» يرتدي ملابسه نفسها من أيام البلاد المنخفضة الجديدة وهي كناية عن سترة قصيرة مع سروال عريض مخطط بأكثر من لون فاقع وحذاء معقود بشرائط، وطاقية حمراء وياقة دائرية حول رقبته. أحياناً ما يقبض على

Twitter: @ketab_n

الأولاد السيئين ويضعهم في كيس لنصف ساعة لكي يخيفهم، أو يحبسهم في خزانة مظلمة، ويرسلهم إلى النوم بلا عشاء. أو بدلاً من أن يسمح لهم حتى بإحدى عشرة كعكة من الدقيق الأسود للإفطار، يجبرهم على التوقف عند خمس كعكات. وعندما يغادر سانتا كلاس هولندا إلى إسبانيا أو أي مكان آخر، يرعى «بيت» الحصان سليبنر، ويختبئ حتى يعود سانتا كلاس في العام التالي.

إن الحكواتي يعرف أين يعيش سانتا كلاس، لكنه لن يبوح بالسر.

Twitter: @ketab_n

الغيلان الذين تحولوا إلى حجارة

حين أتت البقرة إلى هولندا، أصبح لدى الهولنديين أشياء أكثر وأفضل يأكلونها. حلت حقول القمح والجاودار محل الغابات. وبدلاً من جوز البلوط ولحم الحيوانات البرية، صار الناس يستمتعون بالحليب والخبز. عامل الصغار العجول باعتبارها حيواناتهم الأليفة وعاشت العائلة كلها تحت سقف واحد. وكانت الأبقار أيضاً تمضي وقتاً سعيداً فالأهل ينظفونها ويطعمونها جيداً ويحلبونها بانتظام كما يهتمون بها في الشتاء.

مع مرور الزمن تعلم أهل هولندا صناعة الجبن وصاروا يأكلونه كل يوم. فقد راق لهم سواء أكان نيئاً أم مطبوخاً أم مقرمشاً، مقطعاً شرائح أم في كتل أم مقدماً مع أشياء أخرى طيبة. وحتى الثعالب وغيرها من المخلوقات البرية كانت تحب رائحة الجبن المقرمش وطعمه اللذيذ فتتسلل إلى البيوت ليلاً وكثيراً ما تسرق الجبن من حجرات المؤونة. وحين يخفق كل

Twitter: @ketab_n

طعام في استدراج ثعلب ما إلى الشرك، فإن قطعة من الجبن المطبوخ تفلح في خداعه فيسهل صيده واستخدام فرائه.

عندما يصعب على الناس الحصول على اللحم أو السمك، كانوا يحمصون الخبز بالجبن الذي يسمى بالهولندية «جروسترد بـرود ميت كاس». وحينذاك يضحكون ويسمون الطبق الجديد باسم ما يتظاهرون بأنه هو. فكان الأمر نفسه عندما يسمون الأشياء المصنوعة من الدقيق والسكر باسم «النقل» أو «الأصابع» أو «العجول» أو «الحملان». فحتى الكبار يحبون اللعب والتظاهر بالأشياء مثل الأطفال.

وسرعان ما أصبح تقليداً أن تقام حفلات الجبن فيجلس الرجال والنساء حول النار ساعة بعد ساعة يقضمون الخبز المحمص الذي سكب عليه الجبن الذائب. ولكن بعدما يخلدون إلى الفراش، كانوا يحلمون.

وبعض المنامات قد تكون لطيفة، إلا أن منامات الجبن ليست كذلك. فالحالم يتصور أن فرساً ضخمة قد اقتحمت فراشه وجثمت فوق بطنه. وحالما تستقر هناك، تبتسم ابتسامة عريضة بشعة وتشخر وتضرب بحوافرها صدر النائم حتى لا يعود بمقدوره أن يتنفس أو يتكلم. كان شعوراً فظيعاً إلا أنه في اللحظة

Twitter: @ketab_n

التي يتوقع فيها الحالم أن يختنق، يبدو له أنه يقفز من مكان مرتفع ويهبط بعيداً في مكان ما. وحينئذ يهرب الحيوان ويكون الحلم المخيف قد انتهى.

هذا ما يسمى بالكابوس – نايت مير، أو بالهولندية «ناخت ميري» – فناخت تعني الليل وميري تعني الفرس أو المهر. غير أنها في الحلم لا تكون مهراً صغيراً في الحجم أو السن بل دائماً ما تكون فرساً ضخمة تبرك على بطن الإنسان.

في تلك الأيام، بدلاً من استقصاء متاعب الحالم الداخلية أو التساؤل عما إذا كان هناك صلة بين الكوابيس وتناول الجبن بكثرة، نحى الآباء الهولنديون بالمسؤولية كاملة على الغيلان.

كانت الغيلان، تلك العفاريت القذرة التي عاشت في هولندا، مخلوقات قبيحة شديدة القصر متقدة الذكاء، رشيقة الحركة وقادرة على الارتحال بعيداً في ثانية واحدة. وهم أبناء عمومة الكبوترات (العفاريت السمر) الذين سبق ذكرهم. وكانت لهم رؤوس كبيرة وعيون خضر وقوائم مشقوقة، كالأبقار. وكانوا من القبح إلى درجة أنهم أمروا بالعيش تحت الأرض وألا يخرجوا نهاراً، فإذا ما فعلوا تحولوا إلى حجارة.

Twitter: @ketab_n

كانت سمعة الغيلان سيئة كأشقياء يحبون ممارسة المقالب مع على البشر، فيتصنتون إلى أحاديثهم ثم يسخرون منهم بتكرار الكلمة الأخيرة. لهذا سمي صدى الصوت بـ«ويك كلانك» أو كلام الأقزام–الغيلان.

ولأن هؤلاء الغيلان قصار القامة فقد حسدوا الناس على قاماتهم الأكثر امتشاقاً وأرادوا أن يبلغوا ما للناس من الطول. وبما أنهم غير قادرين على فعل ذلك بأنفسهم فكثيراً ما كانوا يتسللون إلى أحد البيوت ويختطفون رضيعاً من المهد. وبدلاً من الطفل المخطوف، يضعون أحد أطفالهم الذابلين. وكان هذا السبب في أن أكثر من طفل صغير مسكين حين يكبر ويصير نحيفاً ذاوياً، كان يسمى «ويسيلكيند» أو لقيطاً (والكلمة تعني حرفياً: الطفل المستبدل). فحين لا يصحّ الطفل المريض، ولا ينفع فيه الدواء ولا العناية، كانت الأم تظن أن الغيلان خطفوا طفلها.

كانت إناث الغيلان وحدهن اللائي يحولن أنفسهن إلى أفراس ليل (كوابيس) ليركن على جسد الحالم. وعادة ما كن يدخلن عبر فتحة أو صدع (في جدار البيت)، فإذا استطاع الشخص الذي في البيت أن يسد الفتحة فإنه يكون قد تغلب على الغولة ويستطيع أن يفعل بها ما يشاء. وإذا ما أراد الرجل، يمكنه أن

Twitter: @ketab_n

يتخذها زوجة. وما دامت الفتحة التي تسللت منها مسدودة، تبقى الغولة زوجة صالحة. أما إذا ترك الشرخ مفتوحاً أو سقطت السدادة من الفتحة فإنها تهرب ولا يمكن إيجادها ثانية.

عاش سيد الغيلان تحت الأرض ملكاً للعالم السفلي في قصر ذهبي يلمع بالجواهر. وكان عنده من الثراء ما يعجز بشر عن الإحاطة به. جميع الغيلان والعفاريت السمر الذين يعلمون في المناجم وفي كير الحداد على السندان في صناعة السيوف والرماح والأجراس أو الجواهر، جميعهم كانو يدينون له بالطاعة والولاء.

وأروع ما في هذه الأقزام هو طريقتهم في الاختفاء عن الأنظار حتى لا يستطيع البشر أن يروا لا أفراس الليل ولا الغيلان الذكور وهم يمارسون شقاواتهم. فكان كل غول يعتمر طاقية حمراء صغيرة ويحرص على ألا يفقدها. وكانت هذه الطاقية بمثابة الغطاء الذي يطفئ الشمعة. فلا تستطيع عين بشرية رؤية الغول طالما هي على رأسه.

حدث أنه ذات ليلة، كانت سيدة عجوز طيبة تحتضر في فراشها حين جاءها غول متوسط الحجم وعلى رأسه طاقيته الحمراء، وقد انسل من صدع في جدار الغرفة، ووقف على

Twitter: @ketab_n

رأس فراشها. من أجل الشقاوة فقط، ولكي يخيفها بجعل نفسه مرئياً، خلع طاقيته الحمراء.

وعندما رأته السيدة العجوز، صاحت: «اذهب، اذهب، ألا تعلم أني بين يدي ربي؟».

إلا أن الغول القزم ضحك منها وظل يحملق فيها بعينيه الخضراوين.

فنادت السيدة العجوز ابنتها أليدا وهمست لها في أذنها: «احضري لي حذائي الخشبي».

ثم هبّت في فراشها، ورمت فردتي الخف، الواحدة بعد الأخرى، على رأس الغول. ما دفعه إلى المسارعة إى الخروج من خلال الصدع، إلا أنه لم يكن قد خرج سوى نصف جسده حين انتزعت أليدا طاقيته الحمراء. ثم غرست إبرة في ظلفه المشقوق جعلته يعوي من الألم. نظرت أليدا إلى الشرخ الذي هرب من خلاله فوجدته مليئاً بالسخام.

وبينما تبرم الطاقية الحمراء الصغيرة في الهواء بسبابتها، خطرت لها فكرة عبقرية. ثم ذهبت وأخبرت الرجال بخطتها فوافقوها عليها. وكانت الفكرة أن تجمع مئات المزارعين وأهل

Twitter: @ketab_n

المدينة، الأولاد والرجال معاً، في الليلة المقمرة التالية، للقبض على جميع الغيلان في درينث. عن طريق انتزاع طواقيهم والإمساك بهم حتى تشرق الشمس، وعندئذ يتحجرون، وتمكن إبادة جميع الغيلان.

كانت تعرف أن الغول سيعود في الليلة التالية لاسترداد طاقيته الحمراء، فتركت رسالة خارج الصدع تناشده فيها أن يحضر بضع مئات من الغيلان إلى المرج الأكبر، أو «الفلدت» كما يسمونه في هولندا. وهناك في ساعة معينة قرب منتصف الليل، سيجد الطاقية الحمراء أعلى شجيرة وهكذا سوف يمكنه، في صحبة رفاقه، الاحتفال باستعادة الطاقية. وفي المقابل، طلبت منه أن يأتيها بعقد ذهبي.

جاءت الليلة المقمرة واجتمع مئات الرجال من درينث مسلحين بأكثر من حدوة حصان وبنبات «الويتشهايزيل»[1] الأخضر وغيره من النباتات التي تعد بمثابة سم للعفاريت. كان معهم أيضاً رقائق برشمان مغطاة بطلاسم الرونز (وهي الأبجدية النوردية القديمة) ومختلف أنواع الأسحار التي من المفترض أنها تضر الغيلان. واتفقوا جميعاً على التحرّك معاً في دائرة باتجاه

(1) نوع من نبات الزينة (م).

Twitter: @ketab_n

المركز، حيث ستعلق السيدة أليدا الطاقية الحمراء على شجيرة. وحينئذ، في حركة سريعة، كان على الرجال أن ينتزعوا كل الطواقي الحمراء من على رؤوس الغيلان سواء أكانوا يرون أو حتى يحسون بأي شيء أو لا.

وكان وضع الطاقية الحمراء على شجيرة في المركز، من قبل السيدة أليدا، هو الإشارة.

وهكذا، عندما ضاقت دائرة الإمساك بالغيلان حتى صارت المسافة قريبة، بدأ الرجال ينتزعون ويشدون ويسحبون. كانوا يمدون أيديهم في الهواء على ارتفاع نحو ياردة من الأرض، ثم يهزون ويدفعون بقوة. خلال دقائق قليلة، كان بأيديهم مئات الطواقي الحمراء، وقد تراءى لهم العدد نفسه من الغيلان؛ كانوا بالفعل جماعة قبيحة.

ومع ذلك، فإن المئات من الغيلان الآخرين هربوا بطواقيهم على رؤوسهم وظلوا مختفين. لكنهم حينما انشقوا جماعات أصبح من الممكن رؤيتهم إذ كان بين كل جماعة من ذوي الطواقي واحد أو أكثر مرئي لأنه بلا طاقية. وهكذا تفرق الرجال إلى مجموعات ليطاردوا الأقزام مسافات طويلة حتى ذهب بعضهم إلى أماكن نائية. كانت معركة ليلية شديدة

Twitter: @ketab_n

الغرابة. فها هي جماعات من الرجال تشتبك مع الغيلان الذين تراءى عدد أكبر منهم بعدما زالت طواقيهم وإن لم يتراءوا كلهم بأي حال من الأحوال.

واستمر الشجار حتى تلونت سماء الشرق باللون الرمادي. لو هرب الغيلان جميعاً لكانوا قد نجوا. وقد هرب المئات منهم، إلا أن الآخرين كانوا من الحرص على مساعدة رفاقهم أو استرداد طواقيهم - خوفاً من عار العودة إلى ملكهم مكشوفي الرؤوس والتعرض لتوبيخه العنيف- مما جعلهم يبقون حتى أشرقت الشمس عليهم من دون أن ينتبهوا إلى طلوع النهار.

ومع أول شعاع شمس، تحول كل الغيلان إلى أحجار.

سكنت الأرض الخالية من الأشجار والتي كانت قبل لحظة مليئة بالغيلان والرجال المشتبكين. أصبحت هادئة كالسماء الزرقاء من فوقها. ولم يبق من دليل على المعركة غير الدموية التي قاتل فيها البشر العفاريت إلا مجموعات من الصخور والأحجار المدورة.

وهناك ترقد هذه الأحجار، كبيرة وصغيرة، حتى اليوم. بين القمح الأسمر وزهور البطاطا في الصيف، تحت الظلال والغيوم،

Twitter: @ketab_n

ورياح الخريف الهامسة، أو مغطاة بجليد الشتاء، يرى بعضها في الأراضي البور المهجورة، ويرى غيرها على مقربة من حقول المزارعين أو في وسطها، غير بعيد من البيوت والحظائر. وغالباً ما تمشي الأبقار في وسطها من دون أن تعرف شيئاً من ماضيها. والغيلان ما عادت تجيء إلى دنيا البشر.

Twitter: @ketab_n

القرش العفن

«إن الذهب يجعل المرأة بيضاء كالقرش[1]»، هكذا قال الهولنديون أيام كان الجان كثيرون ويشغلون تفكيرهم في الكثير من الأوقات. فماذا كان يعني هذا المثل الدارج؟ ومن في الدنيا رأى قرشاً أبيض؟

حسناً، إن ذلك كان منذ زمن طويل حين كانت القروش بيضاء لأنها تصنع من الفضة. وكان كل منها يساوي «ديناري» وهي قطعة معدنية بقيمة شلن أو ربع دولار.

ولأن الهولنديين استخدموا القروش قبل الإنجليز فإننا نجد حرف d في علامة £ وهي s d حيث الـ s ترمز لكلمة «سيلفر» بمعنى فضة، أي أنه «ديناري»[2] من الفضة.

في الأيام الغابرة، قبل أن يكون للهولنديين بيوت بشبابيك

(1) بيضاء كالقرش: Penny-White، يعني هذا التعبير «دميمة لكن ثرية»، وبالتالي فالمثل يعني: «إن الذهب يجعل المرأة الدميمة تبدو جميلة»، لكن في سياق الحكاية يستخدم التعبير بمعناه الحرفي، أي القرش الأبيض (م).
(2) الكلمة مشتقة من الدينار (م).

Twitter: @ketab_n

زجاجية أو ملابس من القماش أو الكتان، أو قبعات وأحذية، أو أبقار وجياد، أو زبد وجبن، لم يعرفوا النقود ولا اهتموا بها على الإطلاق. كان كل شيء تقريباً، حتى الأرض، مملوك للجميع بالشراكة. وحين يحتاجون إلى شيء من البلاد الأخرى، كانوا يتبادلون السلع أو يقايضون. بهذه الطريقة استبدلوا الملح بالفرو، والسمك بالحديد.

إلا أنهم حين يقابلون قبيلة أقوى أو أغنى، أو يضطرون إلى قتال مثل هذه القبيلة، كانوا يحتاجون إلى أشياء أخرى ما كان باستطاعة الغابة والبحر أن يوفراها. وهكذا مع مرور الوقت جاء الباعة الجوّالون والتجار من الجنوب. وأحضروا سلعاً جديدة وغريبة كالمرايا والجواهر والملابس والأشياء اللطيفة التي رغبت فيها النساء والبنات فصرن يتوسلن إلى آبائهن وأزواجهن من أجل أن يبتاعوها لهن. أما للرجال فأحضروا أدوات حديدية وأسلحة أكثر تطوراً، وفخاخاً متطورة لصيد الحيوانات البرية وعربات بدواليب لها برامق[1]. وحين بدأت التجارة المنتظمة، صار من الضروري وجود مال بشكل ما. حينئذ بدأت تظهر قطع العملة الذهبية والفضية والنحاسية في البلدات والقرى، وحتى في غابات هولندا وبقاعها. إلا أنه كان هناك الكثير مما يعد غريباً وغامضاً في تلك القطع المعدنية المدوّرة، التي تسمى المال.

(1) البرمق: شعاع الدولاب أو العجلة (م).

Twitter: @ketab_n

«مال؟ ما هو المال؟»، هكذا سأل باحتقار مقاتل ذو كبرياء.

فشرح الحكماء لرجال الحرب أن المال – موني – مسمى على اسم جونو مونيتا[1]، وهي إلهة في روما قالت للناس إن أحداً لن يفتقر إلى المال قطّ إذا كان أميناً وعادلاً. ومع مرور الوقت استقرت دار ضرب العملة في معبدها وأصبحت قطع العملة تسك هناك. لاحقاً، في هولندا، صار اسمها يعني المال. إلا أن الكثير من الناس الراغبين في الثراء السريع كانوا يعبدون تلك الإلهة. مع مرور الوقت، صارت كلمة ذهب تعني المال عموماً.

حين تغلب حاكم عظيم يدعى شارلمان[2] على أجدادنا أو عقد معهم اتفاقيات صلح، سمح لهم بإنشاء دور ضرب العملة وسكها. وحينئذ، مرة أخرى، كانت مذهلة السرعة التي اغتنى بها الباعة الجوالون والصاغة والرجال الغريبون ذوو اللحى الطويلة الذين جاءوا من الجنوب واختلطوا بالهولنديين يقال

(1) اشتقاق اسم المال من الإلهة الرومانية جونو مونيتا مرتبط بأنه كان ثمة في معبد هذه الإلهة دار لصك العملة أما اسم مونو مونيتا فقد ترجمه القدماء عن اللاتينية بمعنى «تلك التي تنذر» (م).

(2) شارل العظيم (742–814) أشهر ملوك الفرنجة في العصور الوسطى وأحد حكام الإمبراطورية الرومانية المقدسة التي حاولت، استناداً إلى سلطة الكنيسة الكاثوليكية، استعادة أمجاد الرومان في أوروبا الغربية (م).

Twitter: @ketab_n

لهم لومبارديون[1]. بدا أنهم يكنزون الذهب فقط من خلال الاتجار بالعملة.

حين يهدي رجل يعرف ما سوف يفعله القرش الفضي زوجته أحد تلك القروش، كان يتوهّج وجه الزوجة بالبهجة. حتى إن كلمة القرش الأبيض صارت مع الوقت إشارة إلى الوجه المبتسم لامرأة مبتسمة. إلا أنه لوحظ كذلك أن الناس كلما ازداد مالهم طلبوا المزيد. وسرعان ما اكتشف الصبيان والبنات بسرعة أن المال يمكنه من شراء ما يحضره الباعة الجوالون. وبدأت المحال التجارية تظهر في البلدات دفعة واحدة عارضة أشياء كثيرة طريفة تغوي الناس للشراء.

حاول بعضهم أن ينفق ماله ويدخره في وقت واحد – أن يأكل كعكته ويوفرها أيضاً، كما يقول المثل الإنجليزي – إلا أنهم سرعان ما أدركوا أنهم لا يستطيعون ذلك. حتى في أثناء ذلك الزمن الجديد، زمن المال، كان في البلاد الكثير من الحمقى إضافة إلى الحكماء. ادخر القليلون عملتهم وكانوا راضين بإعطاء بعضها إلى الفقراء والمحتاجين. كان للكثير من الآباء ما يسمى

(1) كان أصلهم أيضاً من شمال أوروبا إلا أنهم احتلوا إيطاليا البيزنطية سنة 568 وأسسوا المملكة الإيطالية إلى أن تغلب عليهم الفرنجة سنة 744، ولعل بعضهم نزح حينذاك مجدداً إلى الأراضي المنخفضة (م).

Twitter: @ketab_n

«سباربوت» أو صندوق الادخار المنزلي، وقد علموا أبناءهم الاستخدام الصحيح للمال. بدأ ينتشر تقليد اسم العائلة، حيث لم تعد البنت ابنة فلان ولا الولد ابن علان. وثبت أن الأسماء التي تنطوي على كلمة «بيني» (قرش) محبوبة جداً. وصار من الفضائل المستحسنة فيمن يملك قرشاً أن يبقي على قطعة العملة في صندوق الادخار ولا ينفقها لمدة طويلة بما يكفي لتصدأ وتتجمع حولها العفونة، أو تكتسب لوناً مسوداً وقشرة على سطحها، ما كان يحدث بسهولة شديدة في مناخ هولندا الرطب. فإن ذلك يثبت أن مالك القرش حكيم قادر على التحكم في أهوائه. وهكذا أصبح اسم «شيملبينيج» أو القرش العفن مشرفاً، إذ أن هؤلاء الناس كانوا حكماء وفي أحيان كثيرة طيبين وكرماء، فهم لا يهدرون مالهم وإنما يحسنون التصرف فيه.

من ناحية أخرى، كان هناك بعض البخلاء غير الطيبين المولعين برنين العملة. فبدلاً من إنفاق نقودهم بحكمة أو الاتجار بها، كانوا يكنزون العملة، أي يخبئونها في جورب أو حافظة أو إناء، أو إناء طهي مشروخ ما عاد صالحاً للاستعمال. وكثيراً ما كانوا يخزنونها في مكان ما في المدخنة، خلف حجر طوب مخلوع. وبعد ذلك، في الليل، بعيداً عن أعين الآخرين، كان

Twitter: @ketab_n

هؤلاء البخلاء يعدون ويتحسسون ويتباهون بينهم وبين أنفسهم بالعملة البراقة التي لم تنفع أحداً قطّ. هكذا نشأ ثلاثة أنواع من البشر، يسمونهم الحريصون، والمبذرون، والبخلاء. وكان النوع الأخير هو الأسوأ خلقاً وحظي بالنصيب الأقل من محبة الناس على الإطلاق. كان بعض الآخرين يخبئون مالهم لكي يجدوه حين يمرضون أو يطعنون في السن، وكانوا يتكلمون عن الأمر. لم يعترض أحد على هؤلاء، إلا أن البعض كان يضحك قائلاً: «إن قرشاً في إناء الادخار يصنع جلبة أكثر مما يكون الإناء مليئاً بالذهب».

وحين سمع الجان الذين يعملون تحت الأرض أن الهولنديين تعلموا استخدام المال، حتى إنهم أنشأوا داراً لسك العملة، عقدوا وليمة لمناقشة ما يجب أن يفعلوه لمساعدتهم أو إيذائهم. فقد أرادوا أن يمرحوا مع البشر الذين يعيشون فوق الأرض على كل حال.

كان هذا ديدن العفاريت السمر دائماً: يريدون أن يمرحوا أولاً وأخيراً وأبداً. وهكذا، بالمضارب والمطارق، صنعوا مالاً مزوراً. وبمساعدة العفاريت البيض، بدأوا يخدعون البخلاء أيضاً فيقنعونهم بأن المال الكثير يجعل الناس سعداء.

Twitter: @ketab_n

بعد زمن طويل من إنشاء دار الضرب، التقى عفريتان أسمران للحديث عن مغامراتهما.

قال الأول: «يا لهم من حمقى أولئك المخلوقات الذين يسمون البشر. عندك مثلاً فريك العجوز. إنه يكنز العملة منذ خمسين سنة. عنده الآن كومة من الذهب من فئات الجيلدر والإستايفر[1]. لكن بالكاد بقي شيء من ذاته القديمة. لقد تقلصت روحه حتى صارت بحجم سمك الإربيان. لقد همست له ألا يدع ماله يغادره للتجارة وأن يبقيه حبيس البيت. فامتلأت خزينته إلى حد الانفجار، لكن ما دخل الخزينة خرج من الرجل. ومنذ مات ليلة أمس، بالكاد يوجد أحد يظنه يستحق الدفن. اليوم سأل أحدهم في الشارع عما تركه فريك وراءه. وكانت الإجابة: لا شيء؛ لقد أخذ كل شيء معه، فلم يكن لديه إلا القليل ليأخذه».

قال العفريت الأكبر، وكان شخصاً شرير الطلعة: «هذا ممتع، سأحصل من وراء ذلك على بعض المرح. وسيكون عملي من الآن فصاعداً أن أجعل أرواح الناس تتقلص. فلا شيء أفضل من بدعة جمع المال هذه لتحقيق ذلك بشكل مؤكد».

(1) كان الجيلدر يساوي عشرين إستايفر والإستايفر يساوي ستين (م).

Twitter: @ketab_n

فذهب ذلك العفريت القبيح «ينبش» – كما يقول الهولنديون – وراء الناس الذين يتسللون إلى أماكن لا يجب أن يذهبوا إليها وفي بيوت لا يجب أن يكونوا فيها، متفادين الآخرين. وكان هدفه أن يجعل الناس يجنون بجمع النقود حين يحاولون، كما يفعل الكثيرون منهم، أن يغتنوا بسرعة بوسائل كريهة. ومن المؤسف أن العفريت وجد العديد من العينات الواعدة التي يمكن أن ينفذ فيها مخططه بتحويل بعض العاقلين إلى حمقى. فقد علمهم أن يخرجوا من أرواحهم ما يكنزونه. ولهؤلاء الناس، حين يصبحون بخلاء، كان يعطي اسم «شيم»، ومعناها: ظل. وكان بعضهم يعتقد أن بطون هؤلاء البائسين الذابلين مفرغة من الداخل.

بعد ذلك بقليل، عقد اجتماع كبير للعفاريت السمر في الممالك المظلمة تحت الأرض. وحكى كل منهم ما كان يفعله على سطح الأرض. وبعدما انتهت تقارير المخلوقات الصغيرة، صاح كبير العفاريت السمر وقد جاء دوره: «سأحكي عن ثلاثة إخوة، وما فعل كل منهم بأول قرش فضي كسبه».

فصاح الجميع: «هيا! هيا!».

«لقد تمكنت من شيم وهو بعد صغير. لقد تزوج في العام

Twitter: @ketab_n

الماضي فحسب، لكنه يرفض أن يعطي زوجته جولدن[1] واحد في العام تنفقه على الثياب. إنه يقتر على المائدة، يبري الجبن حتى تصبح قشرته كالورقة، ويجبرها أن تعيش على الشعير والحليب الخالي من الدسم. وإضافة إلى ذلك، فهو لا يعين الفقراء بإستايفر واحد. رأيته يحتفظ بقرش فضي لامع جاء طازجاً من دار المسكوكات. خبأ القرش والمحفظة في طوب المدخنة، فتسلقت إلى أسفل من سقف البيت وانتزعتهما وهربت. دهنت المحفظة بالشمع وخبأتها في الضلع السميك لمركب بالميناء. وهناك سيجمع القرش ما يكفي من العفن. ها ها ها!».

على ذلك، أطلق العفاريت ضحكة كأنها قوقأة دجاجة تعلن أنها باضت بيضة.

«أحسنت، فهذا ما يستحقه صاحبنا الشيم» هكذا قال عفريت أسمر صالح مولع بإعانة البشر».

«الآن سأخبركم بأمر أخيه الذي له زوجة وطفل. إنه يطعمهما ويكسوهما جيداً، كما يعتني بأمه العجوز. وكل أسبوع تقريباً يعين ولداً صغيراً أو بنتاً صغيرة من الفقراء الأيتام. سمعته يقول إنه يتمنى لو يستطيع أن يعتني ببعض الأيتام الفقراء. فهمست

(1) مرادف لجيلدر، وتعني حرفياً «الذهبي» (م).

Twitter: @ketab_n

في أذنه وهو نائم في الليل: احفظ عملتك حتى لا تتعفن وتأكد أن القرش الذي يتحرك باستمرار ليس كالحجر المتدحرج الذي لا تنبت الحشائش على سطحه. أودعه عند الصاغة بفائدة حتى يزيد ويصبح مبلغاً كبيراً. وأثبت في وصيتك أن يستخدم المال، بعد سنين من موتك، لبناء دار للأيتام. سيوفر لهم كلفة الطعام والمبيت ورواتب المربيات الصالحات اللائي يعتنين بهم ويكنّ كالأمهات لهم. وعندما يرى الآخرون ما صنعته، سيحذون حذوك وينون دوراً أخرى، وهكذا تصبح هناك دار أيتام في كل بلدة. ولن يضطر طفل يتيم واحد في هولندا إلى البكاء طلباً للحليب والخبز. لا تدع قرشك يتعفن».

وأضاف كبير العفاريت: «أما الأخ الثالث، واسمه سبيلبيني أو «ادلق القرش»، فقد استيقظ في ذلك الصباح نفسه شاعراً بصداع. فتذكر أنه كان قد أنفق قرشه الفضي في المشرب، مقدماً الشراب للعديد من التافهين أمثاله. كان هو وزوجته، بالقليل الذي عندهما ليأكلاه، يضطران لارتداء الأسمال ولم يكن لدى ابنهما لعبة واحدة تسليه. حين توبخه زوجته برفق، كان يركض خارج البيت في مزاج سيء. وذاهباً إلى حجرة الصنبور[1]، طلب

(1) الإشارة إلى البار حيث تصب البيرة المخزنة في البراميل من صنبور يدوي (م).

Twitter: @ketab_n

كأساً من ذلك الذي نسميه الشجاعة الهولندية[1]، أي الجين، وأفرغه في جوفه. ثم ماذا تظنونه فعل؟».

«أخبرنا!»، هكذا صاح الأشخاص الصغار في جلبة.

«لقد ذهب إلى محل ملابس واشترى بدلة لم يدفع ثمنها بل أخذها بالدين بفائدة، كان ذلك يوم المهرجان في القرية، وطوال ذلك المساء والسهرة، ظل يتطبطل بصحبة الزيوب زاك كما يسمي الهولنديون الندماء المقربين. ففي صحبتهم كان العالم دائماً مخموراً، دائماً جافاً كما يقول المثل الدارج. وقرب منتصف الليل، حين امتلأ أكثر مما يجب بالجين، تعثر في البالوعة وخبط رأسه على حز الرصيف فسقط مغشياً عليه. وعندما لم يعد زوجها إلى البيت ذلك المساء، خرجت الزوجة المضطربة في الصباح الباكر. وجدت بضعة رجال راقدين نياماً على الأرصفة والبالوعات وظلت تقلب كلاً منهم لترى إذا ما كان زوجها بينهم. وأخيراً تعرفت زوجها التافه إلا أن شيئاً لم يوقظه. فقد كان ميتاً. وكان في البلدة حانوتي طماع بعدما حمل الجثة قال للأرملة إن عليها أن تنفق الكثير من المال لكي يدفن زوجها بصورة لائقة، وإلا ستنطلق ألسنة الجيران بالنميمة. فاضطرت

(1) Dutch courage تعبير دارج بالإنجليزية يعكس الاعتقاد بأن الشراب يقوي القلب (م).

Twitter: @ketab_n

المرأة المسكينة إلى بيع بقرتها، وهي الشيء الوحيد الذي تملكه، وصارت أفقر مما كانت عليه. وهكذا كانت نهاية سبيلبيني».

صاح العفاريت معاً: «حكاية مسلية، إن هذا ما يستحقه. والآن احك لنا عن فريك البخيل. هيا».

«حسناً إن المثل الذي يقول المزيد من العملة، المزيد من الحذر بالكاد ينطبق عليه، فقد هربت أنا وأتباعي الخلّص بكل ما عنده. بعد قرشه الفضي الأول، بدأ يكنز المال. إن له سنين يفتش عن هذا القرش لكنه لم يجده بعد. وإذا ما وجده سيكون القرش عفناً. لكنه لن يجده أبداً».

سأل عفريت صغير: «ولمَ لا؟».

«لسبب وجيه. لأنه لم يدفع للملاحين العاملين عنده أجرتهم، فقد احتجوا وأمسكوا عن العمل. وحين حاول أن يقود مركبه بنفسه، انقلب المركب وغرق. ومات فريك غرقاً. وقد وُفرت نفقات الجنازة على زوجته إذ لم يعثر على جثته أبداً».

«وماذا عن الثالث؟».

«هل تقصدون ماينهير إيرليك؟ لن يصيبه ضرر، فالكل يحبه لأنه يرعى الأيتام. ولن يوجد في بيته قرش عفن».

Twitter: @ketab_n

ثم انفض الاجتماع. كان العفاريت الصالحون سعداء. وحزن غير الصالحين منهم لافتقاد ما أملوا أن يكون حكاية مرحة عن السيد إيرليك.

وبعد أن مر ألف عام وجاء عهد الصحف والعملة النحاسية، لم يكن هناك للأخوين سبيلبيني «وشيم» أي نسل. أما ماينهير إيرليك فقد كان نسله بعدد السنين التي مرت منذ كتب وصيته. في هذه الوثيقة، أمر بأن يبقى ماله من الجيلدر الذهبي والقرش الفضي مقرضاً بفائدة مركبة لأربعمئة سنة. ومع مرور الوقت انتقل المبلغ الآخذ في التزايد من الصاغة إلى المصرفيين، وظل يتضخم على نحو هائل. وأخيراً أنفقت هذه الثروة الكبيرة على بناء دور للأيتام. وبحسب رغبته، كانت كل فتاة في الملجأ ترتدي ملابس بألوان شعار سلاح المدينة. ففي أمستردام مثلاً كان رداء كل من الفتيات اليتيمات نصفه أحمر ونصفه أسود وعليه وزرة بيضاء، وكانت طواقيهن المصنوعة من الكتان منمقة جداً وتليق بوجوههن الوردية. في فريسلاند، حيث ينتشر الشعر الذهبي والخدود بلون زهر التفاح ومن حولها الكتان والشبيكة، سمي أحدهم الفتيات اليتيمات «تفاحات من الذهب في إطارات من الفضة». ومن ضمن أمجاد هولندا رعايتها للعجائز والأيتام.

Twitter: @ketab_n

قرأ أحد أعضاء الجيل الثلاثين لآل إيرليك ذات يوم في الجريدة:

«في الأسبوع الماضي، بينما يحفر العمال قناة بالغة العمق، ضرب أحدهم بفأسه بعض الأخشاب التي اسودت بمرور الزمن وصارت شديدة الصلابة. وعندما أخرجت هذه الأخشاب اتضح أنها أضلاع مركب قديم. يقول الخبراء إنه كان في هذا المكان نهر فيما مضى، لكنه جف منذ زمن طويل. وقد عُثر على جميع أجزاء المركب وبأيدي نجارينا من صانعي السفن المهرة، أعيد المركب إلى حاله الأصلية وهو الآن معروض في متحفنا».

فصاح أحد أولاد إيرليك مصفقاً بيديه: «غداً نذهب لنرى ذلك الشيء الطريف في طريق عودتنا من المدرسة».

قال الأب: «مهلاً، فللقصة بقية».

«اليوم بينما يختبر حارس المتحف شرخاً في أحد الأضلاع كان مغطى بالشمع، كشط تلك المادة ومد إصبعه إلى داخل الشرخ فوجد شيئاً طرياً سحبه إلى الخارج. وكانت حافظة نقود جلدية خشنة، وجد بداخلها قرشاً تعفن بفعل الزمن وصار لونه أسود كالقطران. وحتى بعد تنظيفه بالأسيد، ظل من الصعب

Twitter: @ketab_n

قراءة الكلمات المحفورة عليه. ولكن للغرابة كان وجه قطعة العملة قد انطبع على الجلد المغطى بالشمع. ومن تلك العلامة، رغم أن المعدن كان مسوداً وطبقة العفن عليه سميكة، تبين أنه قرش من عهد شارلمان في القرن التاسع».

«إن شارلمان فرنسي يا أبي، لكننا نسميه كارل دي جروت: شارل العظيم».

«نعم يا بني. ولكن ألا تسمع صوت الكاريل كلوك (ناقوس الغروب). لقد حان وقت خلود الصغار إلى الفراش».

Twitter: @ketab_n

الخوذة الذهبية

منذ قرون أكثر مما يمكن عدّه على أصابع اليدين، اعتادت صبايا فريسلاند وسيداتها على اعتمار خوذات ذهبية تغطي رؤوسهن، وعلى وضع الأقراط الذهبية في آذانهن. وهذا ما يميز المرأة الفريسية[1]، فهي باعتمارها غطاء الرأس هذا إنما تعلن انتماءها إلى بلد مجيد لم يتعرض للغزو يوماً ويُسمّى بافتخار فريسيا الحرة. وهذه الخوذة هي من بقايا عصر الذهب حين كان ذلك المعدن الكريم يستخدم بأشكال لا تحصى لم تعد منتشرة اليوم.

أما كيف ولماذا ترتدى الخوذة الذهبية، فهذه الحكاية تجيب عن ذلك:

في الأيام الغابرة، حين كانت الغابات تملأ الأرض والذئاب والدببة كثيرة، لم يكن هناك كنائس في فريسلاند. كان الناس وثنيين يعبدون «وودن»، الذي يسميه الفريسيون «فوسيتي»، وكانت بعض الأشجار مقدسة باسمه. فعندما يصاب طفل أو

(1) نسبة إلى إقليم فريسلاند (م).

Twitter: @ketab_n

بالغ بمرض لا ينفع معه الدواء، كان المرضى يرقدون تحت الشجرة المقدسة آملين في عودة الصحة بسرعة. وإذا ما مات المريض تحت الشجرة، كان يسعد أصدقاءه الآسفين إذا ما سقطت بعض أوراقها على جثته. وكان من يلمس الشجرة المقدسة بفأس أو يصنع حطباً للنار حتى من غصونها يعاقب بالموت.

وقد عاش بين أهل الشمال البربين، الذين يأكلون جوز البلوط ويلبسون جلود الحيوانات، مغن يعزف على القيثارة جاء من البلاد المسيحية في الجنوب. وعندما دعي إلى بلاط الملك، غنى أغنيات حلوة أبهجت ابنة الملك حتى سالت دموع الحزن تليها دموع الفرح على خديها الجميلين.

كانت هذه الفتاة فخر أبيها لطيبة أخلاقها وحلاوة روحها، وكان كل الناس يتباهون بجمالها. كانت عيناها بلون السماء الصافية، وليس بوسع أي زهرة ربيعية أن تضاهي لون الزهر والورد في خديها. كانت شفتاها مثل المرجان الأحمر الذي يأتي به الملاحون من البلاد البعيدة. وقد ضاهت خصلاتها الذهبية الطويلة الذهب في بريقه. وبما أن أباها كان من عبدة فوسيتي، إله العدل، وبما أن ابنته كانت تعامل قريناتها بالقسطاس دوماً، فقد أعطاها اسم فوستيدينا أو حبيبة فوسيتي، ما يعني أيضاً سيدة العدالة.

Twitter: @ketab_n

غنى المغني الآتي من الجنوب أغنية جديدة، وحين عزف على قيثارته، خرجت موسيقاه ناعمة هامسة، وأحياناً حتى حزينة، لكنها شديدة الروعة. كانت أرفع بكثير مما يؤديه مهرجو البلاط وعازفوه للمحاربين، فيا لاختلاف هذه الموسيقى عن تلك! فبدلاً من أن تكون عن القتال والمعارك، أو صيد الذئاب والدببة، والآيائل والأورخصات، كانت الأغاني عن علاج المرضى وإعانة الضعفاء. وبدلاً من الحروب وأمجاد أربابها في قتال الدانماركيين وقتلهم، كانت قصص عازف القيثارة كلها عن أشياء أخرى وأناس رقيقين. لم يغن عن الحرب ولا الصيد، ولا عن الآلهة المتحاربين أو جنيات العاصفة اللائي يحملن أرواح المقتولين في الميدان إلى السماء ومنها إلى بلاط «وودن».

لقد غنى المغني عن الرب المحب في السماء، وبصوته وآلته تدفقت موسيقى الحب والأمل، التي تحث على الطيبة مع المرضى والفقراء، والإحسان إلى الأرامل والأيتام، وعن روعة فعل الخير. ثم ختم المغني بقصة تاج الأشواك وكيف، حين بكت النساء الرقيقات، قال لهن المعلم المقدس[1] ألا يبكين من أجله بل من أجل أنفسهم وأبنائهن. فهذا المعلم العظيم ذو الأفكار والكلمات النبيلة عاش كما علم الناس، وأثبت عظمته في ساعة الموت، أولاً بتذكر أمه، ثم بالغفران لأعدائه.

(1) إشارة إلى السيد المسيح (م).

Twitter: @ketab_n

حينئذ صاح رجال الحرب: «ماذا! نغفر لأعدائنا! نغفر حتى للدانماركيين؟ أي عقيدة قميئة هذه التي نسمع عنها! فلنقتل هذا المغني الآتي من الجنوب». وراحوا يقرعون سيوفهم بدروعهم المعدنية حتى ارتفعت جلبة تصم الآذان. وعلت في القاعة الكبرى أصداء ذلك الصخب وكأنما استعداداً للقتال. وشجع الكهنة الوثنيون (يسمى الواحد منهم درويد) أعمال المحاربين وقد انتابهم غيظ أعنف من غيظ هؤلاء.

غير أن فوستيدينا هرعت لصد الأذى عن العازف، وغطاه شعرها الذهبي.

قال الملك لمقاتليه: «لا! هذا الرجل ضيفي، فقد دعوته وسيكون هنا آمناً».

ترك الكهنة والمحاربون البلاط متجهمين وفي قلوبهم مرارة، ينفثون مشاعر الانتقام ويشعرون بأن واجبهم قتل الغريب. وسرعان ما أخلد الجميع إلى النوم، فقد كانت الساعة متأخرة.

لماذا كان أتباع الملك الوثنيون غاضبين على المغني إلى هذا الحد؟

إن الإجابة عن هذا السؤال هي حكاية في حدّ ذاتها:

Twitter: @ketab_n

قبل ثلاثة أيام، كانت جماعة من الدانماركيين المسيحيين قد أسرت في الغابة. كانوا قد جاءوا إلى البلاد مسالمين بلا سلاح، فقد أرادوا أن يبشروا الفريسيين بالدين الجديد الذي تلقوا هم أنفسهم دعوته. وفي هواء الليل البارد قطعوا بعض الأغصان الميتة لشجرة الإله فوسيتي المقدسة حتى يشعلوا ناراً تدفئهم. فهرع جاسوس كان يراقبهم وأخبر قائده. وسرعان ما أسر الدانماركيون المسيحيون بانتظار رميهم للذئاب الجائعة لكي تمزقهم إرباً. فهذا هو عقاب تدنيس أشجار الآلهة.

كان بعض الفريسيون قد ذهبوا إلى روما – المدينة الأبدية – وهناك تعلموا من الرومان القساة كيف يبنون أسيجة كبرى يطوقون بها مكاناً ما لتصبح كالمسارح الرومانية، ولكن ليس من الحجر بل من الخشب. وفي هذه المسارح، أثناء العطلات، كانوا يرمون أسراهم للحيوانات البرية لإمتاع الناس. لم يكن بوسع الفريسيين الحصول على الأسود والنمور، فتلك الوحوش الفتاكة تسكن في المناطق الحارة. لكنهم كانوا يرسلون مئات الصيادين لمسافة أميال في الغابات المحيطة. وكان هؤلاء الجريئون يطوقون الأيائل والدببة والذئاب ووحوش الأورخص بدائرة تظل تضيق حتى تقع الحيوانات في الحفر العميقة المغطاة بالغصون

Twitter: @ketab_n

وأوراق الشجر فيرفعونها بالحبال. كانوا يبقون على الأيائل من أجل لحمها، أما الدببة والذئاب فيحبسونها في حظائر مواجهة للمسرح. وحين يجن جنونها من الجوع، كانت هذه الوحوش ستطلق على الدانماركيين المسيحيين، فيما ستستخدم بضعة أورخصات هائجة بفعل نخسها بالعصي أو خزها بالرماح، في الدوس على الضحايا المساكين حتى الموت.

تأثر قلب فوستيدينا الجميلة أشدّ التأثر حين سمعت أغنيات المغني عن الإيمان بإله واحد وحب مخلوقاته، فعزمت على تحرير المحبوسين. وبما أنها ابنة ملك، فقد كانت بشجاعة رجل. عند منتصف الليل، نادت خادمة تثق بها، وخرجت حاملة فانوساً على هيئة قرن إلى الزنزانات، وفتحت مزلاج الباب وباسم ربهم وربها، طلبت من المسجونين العودة إلى بلادهم.

وكم نبحت الذئاب في حظيرتها حين اشتمت حضور قادم جديد حملته إليها الريح الليلية! كانت تأمل في الطعام، لكنها لن تحصل عليه.

في الصباح التالي، حين اجتمع حشد المتفرجين واكتشفوا أنهم سيحرمون من مشاهدة رياضتهم الدموية، هاجوا وماجوا. فذهبوا إلى الملك وطالبوه بمعاقبة ابنته على فعلتها. وأعلن الكهنة

Twitter: @ketab_n

الوثنيون أن الآلهة قد أسيء إليها وسيحلّ غضبها على القبيلة جميعاً من جراء الظلم الذي وقع بشجرتها. وأقسم الصيادون على غزو أرض الدانماركيين وإحراق كل كنائسهم.

ودعيت فوستيدينا للمثول بين يدي مجلس الكهنة الذي سيقرر العقاب المناسب. فبما أنها ابنة الملك، لم يكن باستطاعتهم أن يقتلوها عن طريق رميها للذئاب.

وبينما تحدث كبير الكهنة ذو اللحية البيضاء، كان عواء المخلوقات الشرسة يتناهى إلى مسامع الفتاة الجميلة فيتجمد الدم في عروقها. إلا أنها كانت شجاعة ولم تتراجع عما قالته.

عبثاً هددوها، ودعوا عليها بغضب الآلهة. وبشجاعة أعلنت أنها ستعاني كما عانى السيد المسيح ولن تنكره مهما جرى لها.

فصاح كبير الكهنة: «فليكن، ن كلماتك هي الحكم عليك. فستلبسين تاجاً من الأشواك».

صرفت فوستيدينا ثم جلس الحكماء كبار السن يتداولون فيما يجب عمله. كانوا يخافون الآلهة، لكنهم خافوا أيضاً من إغضاب ملكهم. فقرروا أخيراً الإبقاء على حياة الصبية لكن سيكون عليها أن تقف يوماً كاملاً في السوق، من الفجر حتى

Twitter: @ketab_n

الغروب، معتمرة تاجاً من الأشواك المروسة. كما يجب السماح للناس بشتمها بمسيحيتها، لكن مع منع الألفاظ النابية ورشقها بالحجارة أو ضربها بالعصي.

وقد رفضت فوستيدينا أن تطلب العفو وواجهت المحنة بشجاعة. فارتدت ملابس بيضاء مصنوعة من فرو صغار الظباء – وهي مخلوقات طليقة في الغابة – وفكت خصلاتها الذهبية. ثم سارت بخطوات واثقة إلى وسط السوق.

صاح كبير الكهنة: «أحضروا تاج الأشواك للمجذفة على فوسيتي».

فجيء بالتاج، وركعت ابنة الملك أمام العجوز حتى غرس الأشواك الحادة فوق رأسها ببطء وقوة وعيناه تقدحان شرراً، وسرعان ما بدأت تنزف حتى ظهرت البقع الحمراء الداكنة على ملابسها البيضاء.

غير أن الفتاة الشجاعة ظلت واقفة دون تذمّر، وبقيت كذلك طوال اليوم فيما كان الحشد يهتف بشرف إلهه ويسخر منها بعض الأفظاظ، بينما هي صامتة صابرة، على غرار مثالها الأكبر السيد المسيح، وفي داخلها، أخذت تصلي

Twitter: @ketab_n

لرب الجميع لكي يغفر ويصفح. وكان هناك عدد ليس بصغير ممن أشفقوا على الصبية النازفة.

مرت سنون وطرأ على الأرض والناس تغيير كبير. كانت الجراح على جبهة فوستيدينا نفسها تلطّف قلوب الشعب فاستمع الآلاف منه إلى كلمات المبشرين الصالحين. وحلت المروج الغنية بالأبقار مكان الذئاب. وكانت التغييرات التي حدثت خلال عشر سنوات فقط كالتغييرات التي تحدث في الحكايات الخرافية. وأفضل ما في الأمر أن أميراً من أحفاد شارلمان جاء من الجنوب ووقع في حب فوستيدينا التي كانت قد أصبحت ملكة البلاد. فطلب يدها وفاز بقلبها، وحُدّد موعد الزواج. وكان يوماً مشهوداً لفريسيا الحرة. فقد تقرر أن يقام العرس في كنيسة جديدة، بنيت في ذلك المكان الذي وقفت فيه فوستيدينا حزينة ومتألمة حين انغرس في جبهتها تاج الأشواك.

في ذلك الصباح، جاءت جماعة من الصبايا الجميلات يلبسن الأبيض ويمشين في قافلة إلى القصر. وكانت إحداهن تحمل تاجاً من الذهب له ألواح تتدلى فوق الجبهة. لقد صنع كالخوذة بحيث يغطي جروح الملكة. وهكذا تزوجت فوستيدينا

Twitter: @ketab_n

واضعة الخوذة الذهبية على رأسها. وقد تساءل بعضهم: «أيهما الأبهى، خصلاتها الطويلة المنسدلة على ظهرها أو التاج البراق على رأسها؟».

وبدلاً من أن تغني جوقة الكنيسة الترانيم، جيء بالعازف الذي عزف ذات مرة في بلاط الملك، وقد أصبح كهلاً، ليغني منفرداً على قيثارته. بمزاج مبتهج، غنى باللسان الفريسي أغنيتين في تمجيد رب الجميع المتوج الممجد.

امتدحت إحداهما بالضيف الشاب في عرس قانا، صديق الإنسان الذي حول الماء إلى نبيذ؛ أما الثانية، «ملاح خلاصنا العظيم»، فذكرت صبره على المعاناة من أجلنا جميعاً وهو متوج بالشوك[1].

ثم انكسر الصمت الرصين الذي تلا الأغنية بخروج العروس من الكنيسة. ورغم أنها كانت على طبيعتها وبغير زينة، فقد بدت فوستيدينا تجسيداً كاملاً للجمال. بدا غطاء رأسها من اللطافة والخوذة الذهبية من الذوق بحيث أرادت الصبايا الأخريات أن يلبسنها في أعراسهن. وأصبحت عادة العرائس المسيحيات يوم عرسهن أن يلبسن تاج الأشواك الممجد هذا.

(1) من مآثر السيد المسيح ومعجزاته (م).

Twitter: @ketab_n

أقبل كل الصاغة على غطاء رأس العروس الجديد، ومع الوقت صارت هذه الزينة الذهبية ترتدى كل يوم في فريسلاند. وعلى هذا النحو صارت الخوذة الفريسية التي هي تاج أشواك ممجد ترتدى على هيئة أو أخرى في يومنا هذا. حين ولد ابن فوستيدينا الأول، سماه الأبوان السعيدان وليام، وهي ليست سوى كلمة «جيلد هيلم» أو الخوذة الذهبية. ومن تلك المنطقة الشمالية إلى مقاطعات المملكة المنخفضة السبع عشرة، انتشرت هذه العادة. فبطريقة أو بأخرى يستطيع الواحد أن يتبين في أغطية رؤوس النساء الهولنديات وثيابهن ما يذكر بالتاريخ القديم.

وعندما تزور جلالة ملكة هولندا الفرسيين في أرض الشمال القديمة التي اعتز بها آباؤها، فعلى سبيل مجاملة فريسيا الحرة ترتدي الملابس القديمة وعلى رأسها الخوذة الذهبية. والذين يعلمون بأصل اسم ويليمينا يقرأون فيه المعنى الحقيقي: «الملكة ذات الخوذة الذهبية».

Twitter: @ketab_n

حين غضب القمح

لطالما تجول الحكواتي بمحاذاة السدود المطلة على نهر الزويدر زي. ذات يوم، حيث الماء يغطي كل شيء اليوم، كانت هناك حقول خصبة وعدد لا يحصى من البلدات. وحينذاك كانت تنتقل أساطيل السفن في بحيرة فليفو وفي النهر الذي يجري باتجاه البحر. كانت المدن الجميلة المشرقة تزين الشطآن وأجراس الكنائس تقرع ألحاناً مبهجة للأعراس أو ترن رنيناً حزيناً في المناسبات الأليمة. وكانت أيام الأعياد كثيرة لأن السفن الآتية من البلاد البعيدة والقريبة تجلب معها الثروات.

لكن اليوم، تملأ المياه تلك المساحات الخضراء وقد جرت عبارة «مدن الزويدر زي الميتة» مثلاً. ومع ذلك فليست المدن كلها ميتة. فبعضها يرقد عميقاً تحت الأمواج، وقد نسيت حتى أسماؤها لأن فيضان المحيط اندفع في ليلة واحدة قبل قرون مدمراً إياها، وبعضها الآخر أصيب بالركود لأن الثراء لم يعد يأتي على متن السفن فجفت الموانئ. وهناك مدينة واحدة، بسبب

Twitter: @ketab_n

امرأة حمقاء، بدلاً من أن تؤوي آلاف الناس والبيوت، صارت اليوم قرية صغيرة ترقد خلف السدود، ويعيش فيها بضع مئات من البشر ولم يبق لها من مجمل مساحة الأرض التي كانت تضمها ذات يوم سوى كسر بسيط.

في العصور الغابرة، عصور الثلج والحصى، عندما كانت أنهار الجليد النرويجية الطويلة العالية تمتد حتى فريسلاند، كانت ستافورين[1] مقراً لمقام ستافو، إله العاصفة. كان أهلها مدقعي الفقر، لكن كان الكثير من الحجاج يجيئون للتعبد لستافو. وبعدما دخل الدين الجديد البلاد، زاد الثراء، لأن السفن باتت تتاجر مع بلاد الجنوب الدافئة. قامت مدينة كبرى منحها كونتات هولندا وثيقة اعتراف بمميزات لا تقارن. فقد كتب في الوثيقة أن «لستافورين الحرية التي تنعم بها أي مدينة حرة بداية من هذا الجانب من الجبال (الألب) وحتى البحر».

ثم جاء زمن الذهب في ستافورين. كان الناس من الثراء بحيث صنعت مساميرهم ومفصلاتهم ومفاتيح أبوابهم وأقفالها من ذلك المعدن الأصفر الثمين. وفي بعض البيوت، كانت أرضية صالة الجلوس مبلطة بسبائك المجر (الدوكات) الإسبانية.

(1) بلدة صغيرة على ساحل بحيرة إيسل، وقد ذكر النهر من قبل (م).

Twitter: @ketab_n

في هذه المدينة عاش زوجان أثريا من السفن. كان الرجل - وهو تاجر - شخصاً بسيطاً أميناً قنوعاً مجتهداً في العمل. أما زوجته فكانت غير قانعة، دائماً ضيقة الخلق ولا يرضيها شيء البتة، حتى جيرانها سئموا من كثرة شكواها، وقالوا ساخرين إنها يجب أن تكتب على شاهد قبرها عبارة «لقد أرادت شيئاً آخر».

وفي كل رحلة تقوم بها سفينة من السفن العديدة التي يملكها، كان التاجر يطلب من الربان أن يأتيه بشيء نادر رائع، يهدية لزوجته تلك: منحوتة لطيفة أو لوحة، أقمشة من حرير، سجادة مطرزة، جوهرة براقة أو ربما طائر مغرد، أو حيوان طريف، أو برميل من الفاكهة، أو علبة حلوى - كان الربان يأتي بشيء من ذلك دون شك. فبمثل هذه الهدايا، كبيرة أو صغيرة، كان الزوج يأمل في إسعاد زوجته.

إلا أنه لم يحالفه النجاح قطّ في تحقيق ذلك الهدف النبيل. فبدأ يشك في أن الذنب ذنبه: إنه ليس سوى رجل، فلعله لا يستطيع أن يعرف ما تريده امرأته. فقرر أن يجرب ذكاءه وذوقه ليرى إذا كان يستطيع إرضاء رغبات زوجته.

Twitter: @ketab_n

ذات يوم، حين كان أحد ربابنته على وشك الرحيل إلى دانزيج[1] في الشمال الشرقي، وهي في مثل بعد روسيا، سأل زوجته صعبة المراس أي شيء يحضره لها.

فقالت: «أريد أروع شيء في العالم، وهذه المرة، اجلبه لي بالفعل».

وكان التاجر على قدر كبير من السعادة. فقد قال للربان أن يفتش عما يحسبه أروع شيء في العالم ويعود به وهو القمح.

أبحر الربان بسفينته. ومستخدماً ذكاءه الذكوري، قرر هو الآخر أن القمح الذي يصنع منه الخبز هو بكل تأكيد الشيء المرغوب. وحين سأل أفراد طاقمه وافقوه الرأي. وهكذا اتفق جميع الرجال في هذا الأمر على رأي واحد، فلم يسع الربان إلا أن يحلم بأوقات سعيدة على الشاطئ. في رحلاته السابقة، حين كان يتصيد الأشياء الطريفة لإسعاد زوجة رئيسه، كان يشعر بالكثير من القلق. أما الآن فمزاجه رائق.

في دانزيج، أمضى طاقم السفينة وقتاً جيداً، لأن الربان عقد صفقة رابحة مما يسميه الهولنديون «جود كوب». ثم حولت السفينة بالقمح وشدّت الرحال نحو الوطن. حين وصل إلى

(1) أكبر موانئ بولندا (م).

Twitter: @ketab_n

ستافورين، مثل رئيس السفينة أمام التاجر ليقدم تقريره بأن ربحاً كبيراً تحقق وقد جلبت حمولة القمح ووصل الجميع بسلام، والأهم من كل شيء أنه جاء بالكثير مما سيسعد زوجته إذ ماذا يمكن أن يكون أثمن من القمح الذي يصنع منه الخبز وهو أساس الحياة؟

وقت الغداء، حين عاد التاجر إلى بيته، أرادت زوجته أن تعرف سرّ ابتهاجه. وهل حقق «جود كوب» اليوم؟

عادة ما كان هذا الرجل الهادئ لا يقول كلمتين أثناء تناول الطعام، والحق أنه أحياناً كان يغيظ زوجته بصمته. غير أنه اليوم كان كثير الكلام.

فأجابها: «عندي مفاجأة مبهجة لك. لا أستطيع أن أخبرك الآن. عليك أن تأتي معي لتري بنفسك».

وبعد الغداء اصطحب زوجته إلى متن السفينة، وهو يغمز بعينه لرئيسها الذي أومأ بدوره إلى الملاحين ففتح هؤلاء الأشداء الأبواب المطلة على مساحة الخزين حيث كان الحب الثمين محملاً بكثافة حتى أنه يصل إلى ظهر السفينة. رفع التاجر رأسه إلى زوجته متوقعاً أن يراها ويسمعها تصفق بيديها من البهجة.

إلا أن المرأة الطماعة أدارت له ظهرها وثارت ثائرتها.

Twitter: @ketab_n

«ارموه كله من السفينة، ارموه في الماء» هكذا صرخت. «أيها الحقير، لقد خدعتني».

حاول الزوج أن يهدئ من روعها ويشرح أنه فكر أن يجلب لها القمح باعتباره أعظم هدية في العالم، ليسعدها.

وفي هذه اللحظة، سمع بعض المتسولين الجوعى الواقفون على رصيف الميناء صوت السيدة المرتفع فركعوا على ركبهم وصاحوا موجهين كلامهم إليها: «رجاء أيتها السيدة، أعطينا بعضاً من هذا القمح. فنحن نتضوّر جوعاً».

قال الربّان: «نعم أيتها السيدة، وهناك الكثير من الفقراء في ستافورين رغم كل ذهبها، فلمَ لا نوزّع هذا القمح على المحتاجين إذا كنت قد ضقت به إلى هذا الحد؟ فسوف تربحين دعاء الناس بالخير لك بهذه الطريقة. بحق الله، اغفري لي جرأتي، وافعلي كما أطلب. وفي رحلتي التالية، سأبحر حتى الصين وأحضر لك أي شيء تطلبينه!».

لكن المرأة الحانقة رفضت الإصغاء لأحد وبقيت في السفينة تحض الملاحين على رمي القمح في البحر حتى آخر حبة.

قال الزوج: «لن أحاول أن أسعدك قطّ بعد الآن. سيلعنك

Twitter: @ketab_n

الجوعى، وربما ستعانين للحصول على الطعام عقاباً على هذا التبديد للنعمة الذي سيؤدي إلى العوز، حتى أنت ستعانين».

في البداية استمعت في صمت، ثم وضعت إصبعيها في أذنيها حتى لا تسمع المزيد. ومختالة بثرائها، صرخت: «أنا أحتاج؟ أي حماقة تدفعك إلى مثل هذا القول؟ أنا أغنى من أن أتعرض للحاجة!»، ولكي تستعرض احتقارها لهذا الكلام، خلعت من إصبعها خاتماً قذفت به في مياه الميناء. وكاد زوجها يموت من الصدمة والحزن حين رأى أن الخاتم الذي قذفت به في البحر هو خاتم زواجهما.

ثم صرخت بصوت أعلى من ذي قبل: «فليسمع الجميع، حين يعود هذا الخاتم إلي، وليس قبل ذلك، سأعاني الجوع!»، وململمة أطراف تنوراتها، مشت على الممر الخشبي ومضت متعثرة إلى المرسى، مارة بالفقراء الذين نظروا إليها بمزيد من الحقد والخوف. ثم مضت إلى بيتها الفخم في خيلاء.

ولكي تحتفل بنصرها الجديد الذي توقعته وتستعرض ثراءها وفخامة عيشها، بكل الأشياء الطريفة العديدة التي أحضرت لها من بلاد كثيرة، دعت السيدة المغرورة إلى بيتها نفراً من الضيوف. وحين جلسوا جميعاً، قدم لهم الحساء أولاً في

Twitter: @ketab_n

أطباق فضية أبدى الكل إعجابه بها. لكن حين كان السمك على وشك أن يقدم على أطباق ذهبية، استسمح كبير الخدم سيدته في المجيء أولاً من كبير الطهاة بشيء نادر ورائع وجده ذلك الأخير في فم السمكة الجاهزة – مزخرفة بالخضروات – على الطبق الكبير. ومن دون أن تحلم حتى بما يمكن أن يكون ذلك الشيء، صفقت المضيفة بيديها في حبور، قائلة لأولئك المجتمعين على مائدتها: «ربما الآن، أخيراً، سأحصل على ما انتظرته طويلاً – أروع شيء في العالم».

وأجاب الضيوف في صوت واحد: «هذا أملنا جميعاً».

لكن حين دخل كبير الطهاة إلى غرفة الطعام، ومنحنياً بشدة، عرض على سيدته صينية ذهبية عليها خاتم، شحبت السيدة المغرورة.

كان الخاتم نفسه الذي رمت به في البحر في أثناء غضبها يوم البارحة. ومما زادها خزياً أنها لاحظت على وجوه الضيوف أنهم انتبهوا إلى أنه خاتم زواجها.

كانت هذه بداية المآسي. ففي تلك الليلة، مات زوجها من الفجيعة والغيظ. وفي اليوم التالي احترقت المخازن المكدسة بشتى أنواع البضاعة الغالية حتى لم يبق منها شيء.

Twitter: @ketab_n

قبل أن يدفن زوجها على نحو لائق، ثارت عاصفة كبرى آتية من الشمال ووصل الخبر بأن أربعة من سفنه قد غرقت. بالكاد تمكن ملاحوها من النجاة بحياتهم، وقد أصبحوا هم وعائلاتهم في ستافورين يتضورون جوعاً.

حتى عندما ارتدت ثياب الحداد، لم يحم ذلك الأرملة من ديون زوجها الفقيد. فقد اضطرت إلى بيع بيتها وكل ما فيه لتسدد ما عليها من دين. واضطرت لرهن حتى خاتمها عند آل لومبارد، صائغ المدينة، لتحصل على ما يكفي من النقود لشراء الخبز.

الآن وقد صارت فقيرة، لم يعد أحد من الأغنياء الذين كانوا يحضرون مآدبها الفخمة يكترث لأمرها. حتى اضطرت إلى تسول خبزها في الشوارع، فمن ذا يعين امرأة بددت القمح؟ بلغ بها الحال أنها رضيت بالذهاب إلى الحظائر وأكل ما تخلفه الماشية. وقبل نهاية العام، وجدوها ميتة في الإصطبل، ترتدي الأسمال وتتضور جوعاً. بلا جنازة، وإنما على نعش يحمله رجلان، دفنت على نفقة البلدية.

وحتى هذا لم يكن نهاية شرها، فقد استمر أذاها بعدها، إذ وجد أنه لسبب غير مفهوم، هناك لوح رملي يتكون في النهر ويمنع السفن من الوصول إلى المراسي. وحين توقفت تجارتها، صارت المدينة أفقر كل يوم. فما الخطب؟

Twitter: @ketab_n

مع مرور الوقت، أيام الجزر، رأى بعض الصيادين حقلاً أخضر تحت سطح الميناء. لم تكن حديقة من أعشاب البحر، فبدلاً من أوراق النبات الدائرة مع حركة الماء، كانت هناك سنابل تقف عالية. لقد أثمر القمح واتخذ له جذوراً. وخلال شهر آخر كانت أعالي هذه السنابل قد ظهرت واضحة فوق سطح الماء. إلا أن القمح في التربة الرملية عاد إلى حالته البرية فلم يعد يصلح لشيء وصار مؤذياً فحسب.

لم يكن القمح ينتج الحبوب الصالحة للأكل، بقدر ما يؤدي إلى تكتل الرمال من حوله، مما يدفعها إلى التساقط وسط مجرى النهر الآتي من بعيد، من قمم الألب، إلى شاطئ المحيط. في الماضي، كان هذا المجرى في طريقه إلى عرض البحر يحافظ على نظافة الميناء، ما يسمح للسفن بالعبور مباشرة إلى رصيف الميناء. وحينذاك، في الكثير من الصباحات، يتطلع تاجر ثري من شباك بيته القريب من المراسي فيفرح لرؤية سفنه المحملة بالخير الوفير تكاد تخترق غرفة نومه. وكان الأطفال المغامرون يقفزون من أسرتهم إلى سفن آبائهم. وكان الآباء فخورين بهؤلاء الأبناء، مدركين أنهم سيكبرون ليصيروا ملاحين شجعاناً وسيجيئون بسفن التوابل من بلاد الهند. فإن ستافورين لم تكتسب مجدها

Twitter: @ketab_n

وعظمتها إلا بفضل بحارتها الشجعان الذين ذاع صيتهم في طول البلاد وعرضها.

لكن الآن، خلال فترة بهذا القصر، ذوى ثراء المدينة وشهرتها كالحلم. بالتدريج، تضاءل السكان، وتحولت التجارة والسفن إلى ذكرى. وبات على الباقين أن يأكلوا خبز الجاودار والشعير بدلاً من خبز القمح. أفلس المزارعون من جراء الفيضانات التي أتت على أجزاء كبيرة من المدينة، حتى إن السدود بنيت لتحافظ على ما بقي.

لكن الأمر الأفظع كان زحف أمواج المحيط التي أزالت مدناً وبلدات ومزارعاً، مغرقة الكنائس والأديرة والمخازن والمراسي وأرصفة الموانئ في ضربة واحدة ودافنة إياها في أعماق الماء.

إلى اليوم تسمى بقعة القمح البائرة التي أتت على ستافورين «فرووين زاند» أو رمل السيدة. فبدلاً من أن يكون القمح أساس الحياة كما قصدت له الطبيعة، أصبح بفعل شر أقوى من شر ألف جني سبباً لموت مدينة ثرية وخرابها.

ولا عجب أن للهولنديين مثل دارج يمكن أن يترجم بهذه الكلمات: «سوء الخلق يحول القمح إلى عشب ضار، لكن حسن الخلق يحول حقل القمح إلى ذهب».

Twitter: @ketab_n

لماذا تحب اللقالق هولندا؟

يحب اللقلق، ذلك الطائر حكيم الرأس طويل السيقان هولندا أكثر من كل بلاد أوروبا. بعد أن يقطع كل تلك المسافة من أفريقيا، يشعر بأنه في وطنه بين السدود والطواحين.

تظهر اللقالق بالآلاف في هولندا وفريسلاند، وأحياناً ما تتبختر في الشوارع غير هيابة أو منزعجة. تصنع أعشاشها بين القرميد والمداخن، وتربي صغارها حتى في أعلى أبراج الكنائس.

عندما يضع أحدهم عجلة عربة قديمة أعلى شجرة، تجد اللقالق في ذلك دعوة للمجيء والبقاء. وعلى الفور تبدأ قبل كل شيء في إعداد زينتها بعد الرحلة الطويلة. تفعل ذلك قبل حتى أن تبني أعشاشها. تستطيع أن تراها، لساعات، تهندم ريشها وتمشطه بمناقيرها الطويلة. وبعد ذلك، بجدية رئيس البنائين، تشرع في جمع العصي والقش لبيتها. ولا يبدو عليها التعجل أبداً.

Twitter: @ketab_n

يحط اللقلق على قطعة خشب، ثم يعود إلى هندامه من جديد، متطلعاً حوله ليرى إذا ما كان الآخرون منشغلين. وعاماً بعد عاماً، يستخدم زوج اللقالق العش ذاته، فيعيدان بناءه أو يرممانه في كل ربيع. واللقالق مواطنة منضبطة لا تحب التغيير. وطالما يعاملهما صاحب الملك جيداً، فإن السيد لقلق والسيدة لقلقة يواصلان استئجار الشقة نفسه ويحتفظان بمهد العائلة في داخلها، ويحرصان على أن يبقى مشغولاً برضيع. وتشكّل عودة اللقلق في هولندا احتفالاً منزلياً.

في الخارج، في الحقول، يكون السيد لقلق سعيداً بحق، فهولندا جنة الضفادع، ما يمنح السيد ذا السيقان الحمر وفرة من الطعام. وهو يتناول عشاءه على مهل، ونادراً ما يندفع إلى غداء سريع. فبعد ساعات العمل الصباحية، يضع منقاره الطويل بين ريش صدره الكثيف حتى يختبئ تماماً. وواقفاً في الهواء على ساق واحدة، مثل الطوالة، يقضي قيلولته التي كثيراً ما تستغرق ساعات.

وثانياً ساقه الأخرى، يبدو جاثماً فوق الرقم أربعة (4).

قبيل المساء يفرد جناحيه، ينفضهما مرة أو مرتين، ثم يذهب في نزهة على القدمين، لكنه لا يكون في عجالة البتة. وما إن يبدأ

Twitter: @ketab_n

في الصيد حتى يجمع ما يكفي من الضفادع والفئران واليرقات والديدان والحشرات لوجبة جيدة.

ولأن هذا الطائر يشعر بهذا القدر من الحميمية في المدينة والريف، ويكون جزءاً من المنظر الطبيعي للبلاد، فعادة ما نربط بين اللقلق وهولندا. وهناك مثل هولندي يوضح الصورة: «في الحقل نفسه، البقرة تأكل الحشيش، وكلب الصيد يركض وراء الأرنب البري، واللقلق يتناول الضفادع». حقاً، لولا اللقلق، لتفشت الضفادع في هولندا وطغت كما حدث في مصر القديمة في أيام موسى النبي.

يسمي الهولنديون اللقلق باسم لطيف هو «وويفار» – ويعني جالب الكنز. وكل ربيع، يصيح الأولاد والبنات، والآباء والأمهات، مرحبين بالطائر الأبيض الآتي من مصر.

«ماذا جلبت لنا؟»، هكذا يسألونه، سواء أكان بألسنتهم أم بأفكارهم.

إذا ما هجر الطائر بيته القديم على سطح أحد البيوت، تصيب العائلة الفجيعة ظناً منها أنها فقدت حظها. لكن إذا ما اختار السيد لقلق بيتاً جديداً لعشه – بموافقة السيدة لقلق بالطبع –

Twitter: @ketab_n

يسود البيت الذي اختاره أجواء احتفالية أكثر مما تسوده لو وجد فيه مال. «حيث توجد أعشاش على السطح، يكون في البيت أطفال». هذا ما يقوله الهولنديون، فكلاهما مرحب به.

لكي نعرف سرّ حب اللقلق لهولندا، علينا أن نرجع إلى أفريقيا قبل مليون عام. حينئذ يمكننا أن نسأل الجنيات الهولنديات كيف نجحن في جعل الأرض الجديدة في الغرب محبوبة في عالم اللقالق. فلأي سبب هاجرت الطيور الحكيمة إلى البلاد الباردة التي تبعد ألف ميل؟ وقد كانت في هجرتها من الانضباط والدقة بحيث كتب نبي عظيم:

«بل اللقلق في السموات يعرف ميعاده»[1].

في العصور الغابرة، كانت هناك جمال وقوافل في أفريقيا، لكن لم تكن هناك هولندا، فقد كانت الأرض لا تزال تحت الأمواج. في الهند، أيضاً، كان اللقلق طائراً قديماً يخوض في البرك ويمنع الضفدع من النقيق. وأحياناً ما كان يرتفع عدد اللقالق بأسرع مما يجب فيجوع بعضها، فإن المثل يخبرنا بأن لقلقاً «مات في انتظار أن يجف المحيط، أملاً في الحصول على السمك المجفف».

(1) الكتاب المقدس، من إرميا الإصحاح الثامن (م).

Twitter: @ketab_n

وحين تشكّلت أرض المليون جزيرة على ساحل بحر الشمال، كان أول المهاجرين هم الضفادع. لقد انقضت الضفادع على البلاد بسرعة هائلة حتى أثير السؤال - من سيملك البلاد، الضفادع أم البشر؟ كان بعضها كبيراً جداً، وكأن طموحه أن يصبح ثوراً. وكانت تنق بصوت عال حتى أغرقت موسيقى الجنيات وجعلت الليل قبيحاً بأصواتها. أفسد الثعابين الريف بحثاً عن الطيور الصغيرة، وبدا على العلاجيم أنها اعتقدت أن المحيط المالح أوقف عند هذا الحد واتخذت هذه الأرض كلها لنفسها.

تقززت الجنيات الهولنديات من تصرفات الضفادع، فلم يعد بوسعهن الاستمتاع بوقتهن كما كن يفعلن فيما مضى. فإذا ما ذهبن للرقص في المروج، في الليالي المقمرة، دائماً ما كن يجدن ضفدعاً ضخماً يجلس في حلقتهن ويسخر منهن بصوته المحشرج. فلما سمعن باللقالق في أفريقيا، وكيف أن لها شهية كبيرة على شتى المخلوقات المتلوية الزاحفة الواثبة رشاشة الماء، قررن دعوتها جميعاً إلى هولندا.

لم تعرف الجنيات الهولنديات شيئاً عن عادات ذلك الطائر وبالكاد تخيلن شكله. إلا أنهن سمعن الكثير من الأشياء

Twitter: @ketab_n

اللطيفة عن شخصية اللقلق الجيدة. فالطائر الحكيم كانت له سمعة ممتازة ليس فقط بأنه طيب مع صغاره ولكن أيضاً بأنه يهتم بأبويه حينما يكبران. حتى قيل إن اللقلق في بعض البلدان هو رمز البر بالوالدين.

وهكذا أرسلت جنيات هولندا كلها وفداً إلى مصر ودعي مجلس من اللقالق للنظر في الدعوة بالذهاب غرباً. وبعث الرسل إلى جميع الطيور ذوات السقان الحمر بين أحراش النيل وإلى تلك التي تعيش على أسطح المعابد أو تحط على الأهرامات أو تسكن أعلى الأعمدة أو تقف في صفوف على أفاريز بيوت المدن. كانت طيور المدن تكسب رزقها من العمل على تنظيف الشوارع، أما طيور النيل فكانت تحصل على وجباتها غالباً من السمك والضفادع والفئران.

نوقشت الدعوة في اجتماعات اللقالق، وقبلت بالإجماع إذا ما ستثنينا بعض الأجداد والجدات الخائفين ألا يجدوا ما يكفيهم من طعام في الأرض الغريبة. وبعد اقتراح ثان، اتفقوا على ألا يقوم بالرحلة سوى أقوى الطيور، أما الخائفون والضعفاء فعليهم البقاء للاعتناء بالعجائز. ولم تكن قد سمعت في مصر قطّ مثل قعقعة الفكوك هذه التي صاحبت انفضاض الاجتماع.

Twitter: @ketab_n

عندما تسافر اللقالق، تفعل ذلك في أسراب. وقد ترك مصر الآلاف منها معاً. عالياً في الهواء، بأجنحتها العريضة مفرودة وسيقانها الطويلة ممتدة وراءها، كانت تغطي سماء أوروبا خلال بضع ساعات. واتفق على أن يجد كل زوج مسكناً له، وعندما يأتي الخريف البارد تجتمع اللقالق مرة أخرى استعداداً للعودة إلى مصر.

وكان منظراً جديداً على الجنيات والضفادع والبشر، أن ينظروا إلى السماء فيروا هؤلاء الغرباء البيض كالثلج. كانت اللقالق جميلة للنظر، وهي تتمشى على المروج أو تخوض في البرك والقنوات أو تقف صامتة على ضفاف الأنهلا. لكن سرعان ما أصبحت هذه الطيور الأجنبية غير مرغوب فيها في بلاد الضفادع الكبيرة. وكذلك الثعابين، فقد اعتقدت أن هؤلاء الغرباء الجوعى سيجلبون الخراب لهولندا كلها. لكنها كانت أخبار طيبة في أرض الجنيات، فقد بات بإمكانهن أن يرقصن بسلام في حلقاتهن وسط المروج. فقد صارت الضفادع تخاف المخاطرة بولوج المروج لأنها قد تبتلع فوراً من قبل اللقالق. كان باستطاعة الطيور الجديدة أن تغرس مناقيرها عميقاً في حفر الوحل بالدرجة التي لا أمان معها لضفدع أو ثعبان كبير أو صغير.

Twitter: @ketab_n

كانت سيقان اللقالق شديدة الطول، وباستطاعتها الخوض في المياه العميقة، وأكل مئات الضفادع في فترة وجيزة. فصار هناك الكثير من الضفادع الأرامل والأيتام في البرك والمستنقعات.

حين تعرفت الجنيات أكثر على ضيوفهن، ورأين كيف تتصرف، كدن يمتن من الضحك. لم تستغرب الجنيات غداء اللقالق أو عاداتها في الأكل، لكنهن سرعان ما اكتشفن أن اللقالق ليست طيوراً مغردة. فبدلاً من أن تكون لها أصوات، بدا أنها تتكلم مع بعضها بعض عن طريق تحريك فكوكها الطويلة أو إقفال مناقيرها فجأة. كان ريشها الثلجي - وكله أبيض باستثناء الجناحين - يثير الإعجاب والحسد، لكن سيقانها الطويلة ذات الألوان المشرقة كانت أعجوبة الأعاجيب. في البداية ظنت الجنيات أن ضيوفهن يرتدون جوارب حمراء، وفكرن كم هو ثقيل حملها في أيام الغسيل؛ ذلك أنه في هولندا، يجب أن يكون كل شيء نظيفاً.

ظنت الجنيات أن أكثر شيء مضحك بين مخلوقات الأرض يظهر حين يقع السيد لقلق في الغرام. فهو لكي يجذب سيدته ويسعدها، كان يقوم بأغرب الحركات. فيثب عن الأرض ثم يتحرك متقافزاً، واثباً أو مهتزاً، ثم يفرد جناحيه كأنما ليحتضن حبيبته. وبعد ذلك يرقص حولها كالمخمور. وطوال ذلك الوقت

Twitter: @ketab_n

يصنع أفضل ما يستطيعة من موسيقى بقعقعة فكيه الواحد في الآخر. وكان المقصود من هذا العرض أن يكون نوعاً من أغاني الحب التي تغنى تحت نافذة المحبوبة أو بقربها. وكان البرنامج برمته مضحكاً أكثر من أي شيء يستطيعه القرد أو الجدي أو الحمار. وكم ضحكت الجنيات!

لكن الجنيات كن ممتنات للقالق بشدة لتخليص مروجهن من كل ذلك الهوام. بقي لغزاً على الجنيات كيف تستطيع هذه المخلوقات الرقيقة البيضاء أن تضع كل هذه الحلزونات والثعابين والشراغيف[1] والعلاجيم في بطونها فتخرجها ريشاً أبيض كالجليد وأجنحة رائعة وسيقان طويلة حمر كالورد. بدا أنه أروع من أي شيء بوسعهن هن أن يفعلنه، لكن بما أن الجنيات لا بطون لهن وهن لا يأكلن كان موضوع الهضم كله لغزاً بالنسبة لهن.

وإضافة إلى الرعب والكآبة اللذين حلا بعالم الضفادع، كان كل حيوان زاحف يسمع بذلك العدو الجديد يمتعض ويرتعد. فكل ما يزحف ويدب ويقفز كان قد تصور طويلاً أن البلاد له وحده وقد صنعت خصيصاً لمنفعته! ولم يعرف أحد منهم كيف يتغلب على اللقالق. لم يستطع آباء الضفادع فعل شيء فيما

(1) صغار الضفادع (م).

Twitter: @ketab_n

ظلت الضفادع الأمهات خائفات في كل لحظة من أن تختفي شراغيفهن أو ضفيدعاتهن عن أنظارهن. فقد خفن من أن يرين أبناءهن في قبضة فكين طويلين عظميين كأنهما مقص.

في ما يلي إحدى المآثر التي ظلت تروى طويلاً في برك الضفادع الهولندية لتدلل على الخطورة التي يقع فيها الصغار من جراء الفضول، وهي قصة حقيقية كانت تحكى، ولم تؤلف أو تطبع في كتاب:

كان أحد الشراغيف كثيراً ما يلح على أمه لكي تدعه يذهب لرؤية عمود أحمر كان قد سمع به من ضفدع رحالة. ولم تقبل السيدة ضفدعة في بادئ الأمر، إلا أنها وعدت شرغوفها أنه ما إن يفقد ذيله وتتحول زعنفتاه إلى رجلين أماميتين وتنمو مؤخرته بما يكفي ليثب بعيداً عن الخطر، يمكنه أن ينطلق في رحلاته. وقد حذرته مع ذلك ألا يقترب أكثر من اللازم من ذلك العمود الأحمر الذي سمع به. فلم يكن أحد قد اكتشف بعد ماذا يكون ذلك الشيء المنتصب في الماء، إلا أن الكبار شكوا في أن يكون خطراً وحظروا الضفادع الصغار أن يبقوا بعيداً. في الحقيقة، لم تكن العصا الحمراء سوى لقلق نائم يمضي قيلولة بعد الظهر المعتادة. لم يكن ضفادع هذه الضفة ولا المقيمون في البركة

Twitter: @ketab_n

الذين يبقون أنوفهم فوق الماء حتى يتنفسوا قد رأوا مثل هذه العصا الحمراء ولا العمود المقابل؛ فلم يكن طائر من هذا النوع قد طار في منطقتهم قبلاً. ولم يشكوا في أن يكون لقلقاً برجليه على هيئة رقم أربعة (4). حقاً إنهم لا يعرفون شيئاً عن منقاره الطويل الذي يمكن أن يفتح ويغلق مثل الفخ، قابضاً على ضفدع أو ثعبان وبالعاً إياه في لحظة.

ولسوء حظ ذلك الضفدع الصغير غير المتعلم، الذي يغادر موطنه للمرة الأولى، أنه اقترب من العمود الأحمر أكثر مما يجب، ليثبت شجاعته، بل وحك أنفه في ذلك الشيء الغريب. فجأة أفاق المخلوق البشع الذي كان نائماً وضم فكيه. وفي لحظة، اختفى الضفدع المتملص عن النظر إلى بطن ذلك الوحش الذي صارت له ساقان حمراوان وليس واحدة. وأمام مشهد تلك الشراهة، قفز صف كامل من الضفادع من الضفة إلى البركة. من يومها، صار واضحاً أن هولندا ليست ملك الضفادع كلياً.

أما عن البشر، فقد أسعدتهم الحرب مع الهوام ونصر اللقالق لدرجة أنهم جعلوا من هذا الطائر بهجتهم وفخرهم. فقد اعتبروه منقذ بلادهم ولم يملوا من تكريمه. لقد وضعوا الصناديق على أسطح بيوتهم حتى يعشش فيها ذلك الطائر. وجمعت كل

Twitter: @ketab_n

عجلات العربات القديمة في البلاد لتوضع على ارتفاع بضعة أقدام من الأرض في أشجار الصفصاف وقد أزيلت بعض غصونها بالمنشار حتى يستخدم اللقالق تلك العجلات كصالات استقبال وغرف تغيير ملابس.

أما الفرسان، فقد نقشوا هيئة اللقلق على دروعهم وشاراتهم وشعارات سلاحهم، كما أبرز المواطنون ذلك الطائر على أختام مدنهم. وقد كرست عاصمة البلاد، الهاج، لهذا الطائر، وحفرت بركة داخل حدود المدينة حيث تطعم اللقالق ويعتنى بها على النفقة العامة إلى آخر الزمان. وحتى الآن تحكى العديد من الحكايات المسلية التي تدلل على حنان اللقالق على صغارها كنموذج تحتذيه للأمهات الهولنديات ويستمتع بالاستماع إليها.

وفي البلاد بشكل عام، في أي من المقاطعات الإحدى عشرة[1]، متى صرفوا مستنقعاً أو فرغوا بركة في قرية، لم يكن ينظر لذلك الجسم المائي على أنه جزء من هولندا إلا إذا كان فيه لقالق. وحتى في الأماكن البرية المستحدثة التي يسمونها أراضي مستخرجة، كانوا يضعون أوتاداً في الأرض الجافة التي

(1) هولندا تعتبر مقاطعتين داخل البلاد المنخفضة: الشمالية والجنوبية، ولعل الكاتب هنا ضمهما في مقاطعة واحدة (م).

Twitter: @ketab_n

تم تصريف الماء من عليها وفوق تلك الأوتاد يضعون العصي والأعواد على سبيل دعوة عائلات اللقالق لتأتي وتعيش وسط الناس. على الطريق وضعوا أعمدة لعشش اللقالق. وصارت عادة عند المزارعين، وقت عودة اللقالق، أن يذبحوا عجلاً مسمناً أو كبشاً ويتركوا بواقي اللحم في الحقول كمأدبة للطيور الزائرة. وهناك عدد هائل من الأمثال الهولندية، كلها تمتدح ذلك الطائر الذي يحب الأطفال.

وأخيراً فقد جعل الأطفال الهولنديون حتى عهد الملكة ويليمينا من أصدقائهم جالبي الكنوز حاملي رسائل أيضاً، فكانوا يربطون قطعاً من الورق متناهية الصغر إلى أرجل اللقالق الحمر ليبعثوا برسائل في الخريف للأولاد والبنات في أرض أبي الهول والأهرام، أرض موسى، وأبناء فلسطين. وفي الربيع، كانت الردود على رسائلهم تصلهم في البلاد التي ترحب دوماً بطائر يسمى جالب البركة.

ولهذا تحب اللقالق هولندا.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة

كلمة
KALIMA

أبوظبي للثقافة و التراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE

ISBN 978-9948-01-338-9
9 789948 013389